أحلى قصائد الصوفية



مجدي كامل

دار الكتاب العربي

أحلى قصائد الصوفية

دار الكتاب العربى
سوريه ـ دمشق ـ الحجاز
ش مسلم البارودى ـ مدخل فندق الشموع طـ ١
هاتف : ٢٢٣٥٤٠١ـ٢٢٢٣٨١١
ص . ب : ١٣٣٤٤ فاكس : ٢٣٤٥٩٤
مصر ـ القاهرة ـ ٥٢ شارع عبد الخالق ثروة ـ شقة ١١
هاتف : ٣٩١٦١٢٢ فاكس : ٢٦٩٤٤٤٨
رقم الإيداع : ٩٧/٢٧٠٦
الترقيم الدولى : 3- 22 - 5346 - 977
الطبع : عربية للطباعة والنشر
العنوان : ٧ ، ١٠ ش أرض اللواء ـ المهندسين
تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ـ٣٠٣٦٠٩٨

الطبعة الأولى : ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م

مجدى كامل

أحلى قصائد الصوفية



إهداء

إلى روح التصوف الكامنة
داخل كل منا.

مجدى

تقديم

لقد كان ظهور الشعر الصوفي في أدبنا العربي معاصرا لظهور التصوف ذاته. فقد عبر أوائل التصوف عن أنفسهم، وطرقهم، وحبهم الالهي شعرا، كما لوكانوا قد اختاروا هذا الفن الأدبي الرفيع حتي يكون وسيلتهم في نشر التصوف وأصوله. ومنذ فجرالتصوف، وحتي اليوم، يتخذ الصوفية من الشعر قالبا للتعبير عن "المحبة" التي تعني عندهم طريق الوصول إلي الله تعالي.

وقبل أن نتحدث عن هذا اللون من الشعر الصوفي وخصائصه، يجدر بنا أن نعرف في البداية معني التصوف نفسه.

لقد عرف البعض التصوف علي أنه فلسفة المسلمين، علمهم في الأخلاق، كما قال آخرون إنه منطق المسلمين، وفي تحديد معني كلمة «التصوف» يطالعنا أكثر من رأي وتفسير، فهناك من يقول إن كلمة «التصوف» مأخوذة من كلمة «صوفيا» اليونانية، ومعناها، الحكمة.

وهناك من يقول ان الكلمة منسوبة إلي لبس الصوف الخشن الذي تعود الصوفية لبسه منذ القدم، وهناك من يقول هي نسبة إلي قبيلة «صوفة» التي كانت منقطعة لخدمة الكعبة، وهناك من يقول: ان الكلمة نسبة إلي «الصفة» وهي مكان بأخر مسجد الرسول ﷺ، وهناك من يقول، ان الكلمة نسبة إلي الصفاء والمصافاة.

وهناك من يقول غير ذلك من الآراء والتفاسير، ومهما كان القول والرأي فإن علماء الأخلاق والتهذيب الروحي، يقولون، إن حقيقة التصوف الكاملة الفاضلة هي مرتبة «الاحسان» التي يفسرها الرسول عليه الصلاة والسلام في حديثه المشهور بقوله، «الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

ومعنى هذا أن التصوف الصادق هو الذي يقوم على اخلاص العبادة لله، بلا تصنع ولاتكلف، ودون رياء أو نفاق، وذلك يقتضي أن يكون الانسان مسلما حقا، وأن يكون مؤمنا صدقا، ويحسن الجمع بين اسلامه وايمانه، ويزينهما باحسانه واتقانه، عن طريق المراقبة لله، والمحاسبة للنفس، وقبل أن يصير الحساب إلي غيرها، كما قال الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، وتهيأوا للعرض الأكبر، يوم تعرضون علي ربكم لاتخفي منكم خافية».

وهناك اصطلاحات صوفية تشير إلي هذه المعاني، كالصفاء وهو عند الصوفية يقصد به التوحيد الخالص الذي اقرت به كل الارواح قبل خلق الأجساد.

وهناك التواضع وهو واحد من أهم الاخلاق الصوفية التي يتحلي بها المبتديء، والواصل علي السواء، وهو علاج لما جبلت عليه النفس من الكبر.

وهناك رموز صوفية كالخمر مثلاً ويقصد بها انوار الله والسكر ويقصد به سكر الارواح. وهناك ما يعرف عند الصوفية بتجلي الاسماء الالهية، وهي حالة من الترقي الصوفي، تكون بعد الفناء التام.

وينبغي أن نلاحظ أن التصوف ليس همهمات ولاتمتمات، وليس خروجا علي شريعة الله في قليل أوكثير، فالتصوف الصحيح أساسه التقيد بالقرآن والسنة، والخضوع لأوامر الله وأحكامه، وكل من خرج علي حكم الله وأمره، فدعواه أنه متصوف دعوي باطلة، لايقرها شرع ولاعقل.

والتصوف ليس بالمظاهر والأشكال، ولابلبس المرقعات أو تعليق المسابح، بل هو أن يعمر الإنسان صدره بالصلة بالله، والخوف منه، والرجاء فيه، والله جل جلاله يقول في سورة الطلاق: «ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب، ومن يتوكل علي الله فهو حسبه، ان الله بالغ أمره، قد جعل الله لكل شيء قدرا».

وهناك كثير من ادعياء التصوف يتوهمون أو يزعمون أن التصوف معناه عدم السعي أو عدم العمل، ويظنون أن التصوف كسل وبطالة، ونفور من الجهد والاجتهاد في شعاب الحياة الفاضلة الطيبة، ولو قبلنا هذا التصوير المنحرف للتصوف لكان نكبة علي المجتمع الاسلامي، وكان تمردا علي توجيه الحق جل جلاله الذى يقول في سورة الجمعة، «فإذا

قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض، وابتغوا من فضل الله وأذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون».

ويظهر أن الذين حملوا علي التصوف وأهله تلك الحملة القاسية الشعواء، كانوا متأثرين بتلك الصورة التي رسمها للتصوف أولئك الادعياء الذين لم يصدقوا في ايمانهم واحسانهم، ولم يتقنوا العمل الجامع بين خيري الدنيا والآخرة. مع أن الأثر الاسلامي الحكيم يقول: «اعمل لدنياك كأنك تعيش ابدا، وأعمل لآخرتك كأنك تموت غدا».

وعلي الرغم من أن البعض يرجع بأصول التصوف إلي أيام الصحابة، بل إلي أيام النبوة، الا أن الأكثر شيوعا بين الباحثين هوأن البداية الحقيقية للتصوف كنمط متفرد من التقرب إلي الله كان ابان القرنين الثاني والثالث الهجريين. وهما القرنان اللذان شهدا ميلاد الشعر الصوفي، وهكذا فإن بدء الشعر الصوفي، هو نفسه بدء التصوف.

وما أن جاء القرن السادس، حتي كان الشعر هو أكثر أدوات التعبير الصوفي شيوعا.

والحب الصوفي هو أكثر ما يميز به شعر الصوفيين، ويجعل من أشعارهم قصائد نورانية تخلب اللب، وتستحوذ علي الفؤاد.

فالحب الصوفي يتخذ فيه الشاعر من الذات الالهية موضوعا يدور حوله، وفيه يصف الحب ولذته، ومايجده من لوعة وأسي أو قرب ووصال. وكذلك ما يمر به في تصوفه من مقامات وأحوال، ومجاهدة مستمرة للنفس، وما يتعرض له من فيض رباني، والهام قلبي، وسمو روحي.

وفي شعر الصوفيين يتجسد هذا الحب الصوفي الالهي الغامر الذي نراه ينقسم شقين: شق يتعلق بحب الله تعالي للعبد.. واخر يتعلق بحب العبد لله، وكلاهما أفاض فيه الشعراء الصوفيون.

وفي هذا الكتاب نحاول أن نسلط الضوء علي عدد من أشهر شعراء الصوفية، الذين قدموا للإنسانية نتاجاً شعرياً رائعًا وتراثًا انسانيًا خالدًا آملين من المولي عزوجل ان يحظي برضاك، واستحسانك.

مجدى حسين كامل

شغلت قلبي..

أحِنُّ بأطرافِ النهارِ صبابةً

وباللَّيلِ يدعوني الهوى فأجيبُ

وأيامنا تفني وشوقي زائدٌ

كأن زمانَ الشوقِ ليسَ يغيبُ

« سمنون المحب »

هذا الشاعر الصوفي الذي عاش في بغداد وتوفي فيها سنة ٢٩٨هـ صاحب مدرسة شعرية متفردة، يصعب تجاهلها، سواء عند الحديث عن الشعر العربي، بوجه عام، أو الصوفي علي وجه الخصوص. وسمنون المحب ليس هو اسم شاعرنا الحقيقي، وإنما كان هذا هو اللقب الذي أطلقه عليه معاصروه، لإنه توقف أمام المحبة، فجعلها طريقه للوصول إلي الله، ووصل فيها إلي منتهي المنتهي.

كما كان سمنون المحب ينسج في المحبة الالهية غزلياته، حتي أصبح معروفا بتخصصه في المحبة، متفردا في الحديث عنها بلسان العاشق، لدرجة أنه إختص باسم «المحب»، دون سائر شعراء الصوفية ممن عاصروه.

كما أنهم وصفوا كلامه بانه «أحس كلام، وشعره لايدور الا عن الصد والهوي والجفا والصبر والرجا والوجد والعتاب والشوق والوصال والبين والبكاء والعذاب والصبابة».

يروي «الهجويري» في كتابه «كشف المحجوب» عن سمنون المحب وكراماته، أن سمنون كان عائدا من الحج، فتوقف بمدينة «فيد» فطلب أهلها منه أن يحدثهم، ولما اعتلي سمنون المنبر، وجد نفسه يتحدث والناس يتشاغلون فيما بينهم فلا يستمع اليه أحد، فالتفت سمنون إلي قناديل المسجد وقال، «اني أتحدث اليك».. فاصطكت القناديل وتحطمت كلها.

ولكن «سمنون المحب» لم يكن لقب شاعرنا الوحيد، فهناك لقب آخر أطلقه هو علي نفسه هو «سمنون الكذاب» ووراء ذلك قصة يرويها المؤرخون، وتبدأ ببيتين من الشعر أنشدهما سمنون علي النحو التالي:

وليس لي سواك حظٌ   فكيفما شئتَ فامتحنّي

ان كان يرجو سواكَ قلبي   لانلتُ سُؤْلي ولا التمنّي

ويقال انه لم يكد سمنون ينشد بيتيه هذين، حتي ابتلي باحتباس البول وذاك هو الامتحان، وأخذ يتلوي من الألم، ويدور في الكتاتيب، يرجوا الصبية أن يدعوا الله أن يعجل بشفائه قائلا: ادعوا لعمكم الكذاب، اشارة إلي تراجعه عما قاله في بيتيه، واظهاره للجزع، والتأدب بآداب العبودية. وعندما أطلق بوله قال: يارب تبت اليك، أي تبت عن طلب الامتحان.

ويتفرد سمنون المحب دون غيره من شعراء الصوفية بأن معظم أشعاره عبارة عن ترانيم عشق قصار، فلا يوجد في شعره قصيدة مطولة، بل مقطوعات متفرقة لاتزيد الواحدة علي أربعة أبيات.

وسنقدم هنا بعض المقطوعات الشعرية المتفرقة التي تعبر عن الارتباط الوثيق بين الشعر والمحبة عند سمنون، وكيف كان هذا الشعر رقيقا للغاية، وكيف كان سمنون نفسه يبرر هذه الرقة بقوله: لايعبر عن الشيء الا بما هو أرق منه، ولاشيء أرق من المحبة.

حنين قلوب العارفين إلي الذكر   وتذكارهم وقت المناجاة للسرِّ

ولاعيش إلاَّ مع رجالٍ قلوبهم   تحنُّ إلي التقوي وترتاحُ للذكرِ

أُديرت كؤوس للمنايا عليهمو   فأغفوا عن الدنيا كاغفاءِ ذي السُّكرِ

همومهمو جوالةٌ بمعسكر   به أهل ودٍّ الله كالأنجم الزهرِ

فأجسادهم في الأرض قتلي بحبه   وأرواحهم في الحُجْبِ نحو العلا

فما عرسوا إلاَّ بقرب حبيبهم   وما عرجوا عن مس بؤسٍ ولا ضرٍّ

سكُونُ إلي روح اليقين وطيبه   كما سكن الطفل الرضيع إلي الحِجْرِ

بكيتُ ودمع العين للنفس راحةٌ   ولكنَّ دمعَ الشوقِ يُنكي به القلبُ

وذكري لما ألقاه ليس بنافعي   ولكنه شيء يهيجُ به الكربُ

فلو قيل ما أنت؟ لقلتُ معذَّبُ بنار مواجيد يُضرِّمها العتبُ
بليتُ بمَنْ لا أستطيع عتابه ويعتُبني حتي يُقال لي الذنبُ

* * *

أفديكَ بل قَل أن يفديكَ ذو دنفٍ هل في المذلّة للمشتاق من عارِ
بي منك شوقٌ لو أنَّ الصخر يحمله تفطَّر الصخر عن مُستوقَدِ النارِ
قد دبَّ حبُّك في الأعضاء من جسدِي دبيب لفظَي من رُوحي وإضْماري
ولاتنفستُ الا كنت مع نفسي وكل جارحةٍ من خاطري جاري

* * *

ضَاعفْ عليَّ بجهدك البلوي وابلغْ بجهدك غاية الشكوي
واجْهَدْ وبالِغْ في مهاجرتي واجهرْ بها في السرِّ والنجوي
فاذا بلغتَ الجهدَ فيَّ فَلَمْ تتركْ لنفسك غايةً قصوي
فانظرْ فهل حالٌ بيَ انتقلت عما تُحب بحالةٍ أخري

* * *

وكان قلبي خاليًا قبل حبكم وكان بذكر الخلق يلهو ويمزَحُ
فلما دعا قلبي هواك أجابه فلستُ أراه عن فِنائك يبرحُ
رُميت ببين منك ان كنتُ كاذبًا إذا كنتُ في الدنيا بغيرك أفرحُ
وان كان شيءٌ في البلاد بأسرها إذا غِبت عن عيني بعيني يلمحُ
فإن شئتَ واصلني وان شئت لاتصلْ فلستُ أري قلبي لغيرك يصلحُ

* * *

تجرَّعتُ من حاليَه نُعَمي وأبْؤُسا زمانٌ إذا أمضي عَزَاليَه أُحْتسي
فكم غمرة قد جَّرعني كؤوسها فجَّرعْتُها من بحر صبري أكؤُسا

تدرَّعتُ صبري والتحفتُ صروفه وقلتُ لنفسي الصبر أو فاهلكي أسي
خطوبٌ لو أن الشُّمَّ زاحمنَّ خطبها لساختْ ولم تدركْ لها الكفُّ ملمسا

* * *

أنا راضٍ بطول صدِّك عنِّي ليس الا لأن ذاكَ هواكا
فامتحنْ بالجفا صبري علي الودِّ ودعني معلَّقًا بِرجَاكَا

* * *

شغلتَ قلبي عن الدُّنيا ولذَّتها فأنتَ والقلبُ شيءٌ غير مفترقِ
وماتطابقتِ الأحداقُ من سِنَةٍ الا وجدتُك بين الجفن والحدقِ

* * *

ولو قيل طأْ في النار أعلمُ أنَّه رضيٌّ لكَ أو مُدْنٍ لنا من وصالكا
لقدَّمتُ رِجلي نحوها فوطئتُها سروراً لأنِّي قد خطرتُ ببالكا

* * *

أحنُّ بأطرافِ النهارِ صبابةً وبالليل يدعوني الهوي فأجيبُ
وأيامُنا تُفقنَي وشوقيَ زائدٌ كأنَّ زمان الشوقِ ليس يغيبُ

* * *

يعاتبني فينبسط انقباضي وتسكن روعتي عند العتابِ
جري فيَّ الهوي مُذْ كنتُ طفلاً فمالي قد كبرتُ علي التصابي

* * *

أمسي بخدّيَ للدموع رسومُ   أسفاً عليك وفي الفؤاد كلومُ
والصبر يحسُنُ في المواطن كلها   إلاَّ عليكَ فإنَّه مذمومُ

* * *

أنت الحبيب الذي لاشك في خَلَد   منه، فإنْ فقدتك النفسُ لم تعشِ
يامعطشي بوصالٍ أنتَ واهبُهُ   هل فيك لي راحةٌ إن صِحْتُ، واعطشِي

* * *

كان لي قلبٌ أعيش بِهِ   ضاع منِّي في تقلُّبِهِ
رب فاردده عليَّ فقد   ضاق صدري في تطلُّبِه
وأغث مادامَ بي رمقٌ   ياغَيَاثَ المستغيث بِهِ

* * *

ياواحد الحسن..

أحلي الهــوي أن يـطولَ الوجــدُ والســـقمُ

وأصـــدق الحب مـــاحلتْ بـه التـــهـمُ

ليـتَ الـليــالي أحــلامًــا تـعــودُ لــنا

فــربما قــد شــفـي داءَ الهـــوي الحـلمُ

« عفيف الدين التلمساني »

ينتسب عفيف الدين التلمساني إلى "تلمسان". وكان ميلاده بها سنة ٦١٠ هـ ويرجع أصله إلي احدي عوائل الكوفة. وتنقل كثيرا في البلاد. حتي وصل مصر وأقام فيها. وأنجب ابنه الشاعر المشهور شمس الدين التلمساني.

ويعد العفيف التلمساني ـ كما كان ينادي ـ من الصوفية الذين أثاروا الجدل، ودخلوا في معارك فكرية، وفلسفية، انتهت باتهامه بالكفر والزندقة، وبأنه من أتباع ابن عربي، ومن القائلين بوحدة الوجود،إلي الدرجة التي أطلق عليه ابن تيمية» الفاجر التلمساني» الملقب بالعفيف.

ولكن التلمساني كان رغم جميع اتهامات خصومه شاعرا كبيرا، وكان له شعر غزلي يشرحه شرحا صوفيا علي طريقته، ولكن حتي هذا الشعر لم يسلم من نقد عماء عصره، الناقمين عليه، حتي انه قيل عنه من جانب أحدهم «لحم خنزير في طبق صيني» نسبة إلي جمال وجودة قالبه الشعري.

ولم يترك التلمساني شعرا كثيرا عقب وفاته سنة ٦٩٠هـ، اللهم بعض المقاطع الشعرية المتناثرة هنا وهناك، أو الأبيات. ومن شعره الصوفي يقول:

ياغائبين ووجدي حاضر بهم	وعاتبين وذنبي في الغرام هم
بنتم فلا طرف الا وهو مضطرب	شوقا ولا قلب الا وهو مضطرم

وهناك أبيات رائعة تعكس مدي ماكان يتمتع به التلمساني من حس شعري، وقدرة علي صياغة أفكاره الصوفية بطريقة محكمة، وفي أسلوب عذب، يدخل القلب بلا عناء. يقول التلمساني في هذه الأبيات الحلوة:

أبداً بذكرك تنقضي أوقاتي	مابين سمّاري وفي خلواتي
ياواحدَ الحسنِ البديعِ لذاته	أنا واجدُ الأحزانِ فيكَ لذاتي
ويحبك اشتغلت حواسي مثلما	بجمالِكَ امتلأتْ جميعُ جهاتِي

* * *

حسبي من اللذاتِ فيكَ صبابةٌ | عندي اشتغلت بها عن اللذاتِ
ورضاي أني فاعلٌ برضاكَ ما | تختار من محوي ومن إثباتِي

* * *

يا حاضراً غابت له عاشقه | عن كل ماض في الزمان وآتِ
حاسبت نفسي فلم أر واحداً | منها خلا وقتًا من الأوقاتِ

* * *

ويقول عفيف:

مَنَعَتْهَا الصِّفَاتُ وَالأَسْمَاء | أنْ تُرَى دُونَ بُرْقُعٍ أَسْمَاءُ
قَدْ ضَلَلْنَا بِشَعْرِهَا وَهْوَ مِنْهَا | وَهَدَتْنَا بِهَا لَهَا الأَضْوَاءُ
كَيْفَ بِتْنَا مِنَ الظَّمَا نَتَشَاكَي | يَالقَوْمِي وَفِي الرِّحَالِ المَاءُ
كَمْ بَكَيْنَا حُزْنًا بِمَنْ لَوْ عَرَفْنَا | كَانَ مِنْ شِدَّةِ السُّرُورِ البُكَاءُ
نحْنُ قَوْمٌ مِتْنَا وَذَلِكَ شَرطٌ | فِي هَوَاهَا فَلْيَيْئَسِ الأَحْيَاءُ
وَأَقَامَتْ نُفُوسَنَا فِي حِمَاهَا | لاَ بِنَا بَلْ بِهَا لِيَصْفُو الصَّفَاءُ
فَالمُلَبِّي إِذَا دَعَتْ هِي مِنَّا | وَمُحِبُونَهَا بِهَا الأَصْدَاءُ
يَا أَبَا الخَبْرِ قُمْ لَكَ الخَيْرُ فَاطْرِبْ | مَسْمَعَ الفَقْرِ مِنْكَ ذَاكَ الغِنَاءُ
لاَتَفُتْ كَاسَكَ الَّتِي مِنْ لَمَاهَا | هِيَ فِيهَا تَنَافَسَ النُّدَمَاءُ
لَمْ أَقُلْ قَدْ عَدَتْكَ كَأْسُكَ لَكِنْ | رُبَّمَا طَوَّحَتْ بِكَ الصَّهْبَاءُ
إِنَّمَا يَشْرَبُ التِي تَسْلُبُ العَقْلَ | نَدَامَي هُمْ لَهَا أَكْفَاءُ
أَسْكَرُوهَا بِهِمْ كَمَا أَسْكَرَتْهُمْ | فِي ابْتِدَاهُمْ بِهَا فَتَمَّ الوَفَاءُ

فَجَزَاءُ مِنْهَا وَمِنْهَا وَمِنْهُمْ وِفَاقٌ وَ وِفَاقٌ مِنْهَا وَمِنْهُمْ جَزَاءُ
قَدْ تَسَمَّتْ بِهِمْ وَلَيْسُوا سِوَاهَا فَالْمُسَمَّي أُولَئِكَ الأَسْمَاءُ

ويقول:

أَيُنْكِرُ الوَجْدُ أَنِّي فِي الهَوَيَ شَحِبٌ وَدُونَ كُلِّ دُخَانٍ سَاطِعٍ لَهَبُ
وَمَاسَلَوتُ كَمَا ظَنَّ الوشَاةُ وَلاَ أَسْلُو كَمَا يَتَرَجَّى العَاذِلُ التَعِبُ
فَإِنْ بَكَي لِصَبَابَاتِي عَذُولُ هَوىً فَلِي بِمَا مِنْهُ يُبْكِي عَاذِلِي طَرَب
نَاشَدْتُكَ الله يَارُوحِي اذْهَبِي كَلَفًا بِحُبِّ قَوْمٍ عَنِ الجَرْعَاءِ قَدْ ذَهَبُوا
لاَتَسْأَلِيهُمْ ذِمَامًا فِي مَحَبَّتِهِمْ فَطَالَمَا قَدْ وَفَا بِالذِّمَّةِ العَرَبُ
هُمْ أَهْلُ وُدِّي وَهَذَا وَاجِبٌ لَهُمُ وَإِنَّمَا وُدُّهُمْ لي فَهْوَ لاَيَجِبُ
هُمْ أَلْبَسُونِي سِقَامًا مِنْ جُفُونِهِمُ أَصْبَحْتُ أَرْفُلُ فِيهِ وَهْوَ يَنْسَحِبُ
وَصَيَّرَتْ أَدْمُعِي حُمْرًا خُدُودُهُمُ فَكَيْفَ أَجْحَدُ مَامَنُّوا وَمَا وَهَبُوا
هَلِ السَّلاَمَةُ إِلاَّ أَنْ أَمُوتَ بِهِمْ وَجْدًا وَإِلاَّ فَبُقْيَايَ هُوَ العَطَبُ
إِنْ يَسْلُبُوا البَعْضَ مِنِّي فالجَمِيعُ لَهُمْ وَإِنَّ أَشْرَفَ أَجْزَائِي الَّذِي سَلَبُوا
لَوْ تَعْلَمُ العَذَبَاتُ المَايِسَاتُ بِمَنْ قَدْ بَانَ عَنْهَا إِذَنْ مَا اخْضَرَّتِ العَذَبُ
وَلَو دَرَى مَنْهَلُ الوَادى الذّى وَرَدُوا مَنْ وَارِدُوا مَائِه لاَهْتَزَّهُ الطَرَبُ
إِنِّي لأَكْتُمُ أَنْفَاسِي إِذَا ذُكِرُوا كَيْلاَ يحرُقَهُمْ مِنْ زفرتى اللَّهَبُ
وَتُرْسِلُ الدَّمْعَ عَيْنِي فِي مَنَازِلِهِمْ كَيْلاَ تُسَابِقَهَا فِي سَحِّهَا السُّحُبُ
كَذَا لِكُلِّ مُحِبٍّ غَيْرَةٌ لَهُمُ وَعِنْدَ كُلِّ غَيُورٍ فِطْنَةٌ عَجَبُ
أُسَائِلُ البَانَ عَنْ مَيْلِ النَّسِيمِ بِهِمْ سؤَالَ مَنْ لَيْسَ يَدْرِي فِيهِ مَا السَّبَبُ
وَتِلْكَ آثَارُ لِينٍ مِنْ قُدُودِهِمُ مرَّتْ بِهَا الرِّيحُ فَاهْتَزَّتْ لَهَا القُضُبُ

وارحمتا للعاشقين..

ياصـــاح ليس علي المحب مـــلامـــةٌ

ان لاح في أفق الـصـــبـــاح صـــبـــاح

لاذنب للـعـــشـــاق ان غلب الهـــوي

كـتـمـــانهم، فنمـا الـغـرامُ، فـبـاحـــوا

« السهروردي »

يلقب شهاب الدين السهر وردي عادة بـ"الصوفي القتيل"، نسبة إلي مقتله بأمر من صلاح الدين الأيوبي بعد أن اتهمه عدد من خصومه من علماء حلب بالكفر والخروج علي السنة. وقد حاول البعض ومنهم ابن صلاح الدين الملك الغازي انقاذه، نظرا لما يجمعهم به من صداقة، دون جدوي، حيث أصر خصوم السهر وردي علي تنفيذ أمر القتل، وهكذا لقي حتفه.

ويري البعض أن خطأ السهر وردي الوحيد كان هو محاولته الخوض في فلسفة الدين في عصر ليس لدي علمائه استعداد لذلك، كما كان تصوفه يختلف كثيرا عن أقرانه، مما قلبهم عليه، فعجلوا بالتخلص منه، وهو لم يتجاوز الثامنة والثلاثين من عمره.

ورغم سني عمر السهر وردي التي لم تتجاوز الأربعين الا أنه ترك للمكتبة العربية والصوفية نحو ٤٩ كتابا معظمها في التصوف، ومنها «رسالة أصوات أجنحة جبرائيل»، و«كلمة التصوف»، و«مقامات الصوفية ومعاني مصطلحاتهم»، و«الغربة الغربية»، و«الكلمات الذوقية والنكات الشوقية»، و«مؤنس العشاق»، و«الواردات الالهية»، و«البارقات الالهية والنعمات السماوية»، و«لوامع الأنوار».

ومع ذلك يبقي كتاب «حكمة الاشراق»، الذي ضمنه السهر وردي فلسفته في التصوف «الاشراقية» هو أهم كتبه، وهي امتداد للسلسلة التي بدأها الحلاج، الذي ورد ذكره في احدي مواضع هذا الكتاب، وهو (السهر وردي) يدعوه باسم «أخيه»، ويؤلف كتبه في شكل توجهات صوفية، وعلي هيئة رؤي.

وللسهر وردي الذي ولد بـ«سهر ورد» من أعمال «زنجان» أشعار رائعة، كلها يفيض رقة وعذوبة، في إطار فلسفي، وروحاني، قد لايضاهيه غيره.

وسوف نقرأ معًا احدي نورانيات السهر وردي، وهي بعنوان «وارحمتا للعاشقين»:

أبـــدًا تحـــن الـيــكـــم الأرواح ووصـــالكـم ريْحـــانُـهـــا والرّاحُ

وقلـوبُ أهلِ ودادكم تشـــتـــاقـكمُ وإلي بـهـــاء جـــمـــالكم تـرتاحُ

وارحـــمتــا للعــاشـقين تحـمّلوا ثقل المحـــبـــة والهـــوي فـــضّـــاحُ

* * *

أهل الهـوي قسـمـان: قسم منهمـو كـتـمـوا، وقـسـمٌ بالمحـبـة بـاحـوا

فـالبـاحثـونَ بِسـرهم شـربوا الهـوي صِـرفًا فـهزهـموا الـغرام فـبـاحـوا

والكتـمـون لسـرهم شـربوا الهـوي ممزوجـةً فـحَـمـتْـهـمـو الأقـداحُ

* * *

بالســر إن بـاحــوا تبـاحُ دمـاؤهم وكـــذا دمـــاء البـــائحـين تُبـــاحُ

وإذا همـو كـتـموا تحـدّث عنهـمـو عنـد الوشـــاة المدمعُ السّـــفـــاحُ

وبدت شـواهدُ للسّـقـام عليـهـمـو فــيــهـــا لمشكل أمـرهـم إيضـاحُ

خُـفض الجَناحُ لكم، وليس عليكـمـو للـصبِّ في خـــفْـضِ الجناح جُـناحُ

فـإلي لقــاكـم نفـســهُ مـرتاحــةٌ وإلي رضـــاكم طرفُـــهُ طـمـــاح

عودو النُور الوصل من غسق الدجي فـالـهـجـر ليـل والوصـال صـبـاح

* * *

صـافـاهمـو فـصـفـوا له، فـقلوبهم في نـورها المشـكاة والمـصـــبـــاح

وتمتـــعـــوا فـالوقـت طاب بقـربكم راق الشــــراب وراق الأقـــداح

ياصـح ليس علـي المحب مـلامـــة إن لاح في أفق الـصـبـاح صـبـاح

* * *

لانسب للعشاق ان غلب الهوي　　كتمانهم، فنما الغرام، فباحوا

سمحوا بأنفسهم وما بخلوا بها　　لما دروا أن السماح رباح

ودعاهمو داعي افحقائق دعوة　　فغدوا بها مستأنسين وراحوا

* * *

ركبوا علي سفن الوفا، ودموعهم　　بحر، وشدة شوقهم ملاح

والله ماطلبوا الوقوف ببابه　　حتى دعوا، وأتاهموا المفتاح

لايطربون لغير ذكر حبيبهم　　أبدا، فكل زمانهم أفراح

* * *

حضروا وقد غابت شواهد ذاتهم　　فتهتكوا لما رأوه وصاحوا

أفناهمو عنهم كشفت لهم　　حجب البقا فتلاشت الأرواح

فتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم　　ان التشبه بالكرام فلاح

* * *

أيامنا بلقائكم أفراح　　وجميع أيام الملاح ملاح

قل للمحب إذا تهتك في الهوي　　ان التهتك في الغرام مباح

واخلع عذارك لاتبال بعاذل　　واخلع عذارك لاتبال بعاذل

* * *

أهل المحبة حين طاب شرابهم　　باعوا النفوس لحبهم وارتاحوا

شربوا كؤوس الحب في حان الصفا　　فتمايلت سكرا بها الأرواح

بالانكسار تحملوا في حبه　　فبدا عليهم من رضاه سماح

* * *

خلع الحبيب عليهو خلع الرضا وأنا لهم من فضله الفتاح
ملأ الحبيب قلوبهم من نوره فشذاهمو من عطره فواح
تحيي الحبيب ذكرهم وبنورهم وتزول عند لقاهمو الأتراح
كل القلوب لهم تحن تشوقا وتحبهم، ويحبهم ترتاح

* * *

الوسيلة..

شـــربت بـكاســـات الغــــرام ســـــلافـــــة

وصـــرت أنا الســـاقي لمن كـــان حـــاضـــرا

بهـــا انتــعــشت روحي وجــسمي ومــهــجــتي

أدير عليـــــــهم كـــــرة بـعـــــد كــــــرة

« عبدالقادر الجيلانى »

الامام محيي الدين عبدالقادر الجيلاني أحد الذين نالوا مكانة رفيعة في تاريخ التصوف، ووضعوا قواعد طريقتهم الصوفية، التي نشرها أتباعه بعد وفاته في بغداد سنة ٥٦١هـ ولم يكن الامام الجيلاني شاعرا بالمعني الدقيق للكلمة، وإنما كان ـ كما يري بعض المؤرخين ـ الشعر عنده أداة تناسب التعبير عن المعاني الصوفية.

كما أن الإمام الجيلاني الذي ولد في «جيلان» وراء طبرستان، سنة ٤٧١هـ وعاش ومات في بغداد ولم تعرف له أية دواوين مطبوعة، ولا مخطوطة، وانما بضعة قصائد متفرقة هنا وهناك، قام مشكورا بجمعها الأستاذ الجليل يوسف زيدان في ديوان كبير إختار له اسم «ديوان الجيلاني».

وفي شعر الجيلاني الحنبلي المذهب الذي عمل بالتدريس والإفتاء، نجد حقائق التصوف وقد إختبأت بين حروف الكلمات، ويشار إليها تلويحا وتلميحا لنفس الأسباب، التي جعلت شعر الصوفية رمزيا.

ومن أهم قصائد ديوان الجيلاني رائعته المعروفة باسم «الوسيلة»، وتقع في ٤٨ بيتا، وهي تعبير ـ كما يقول الباحث الجليل «يوسف زيدان» الذي قلم بجمعها ـ عن فرط المحبة وفيضان الوجد، وقد عمد الامام فيها إلي الرموز الصوفية كالخمر والحان والكأس، وغير ذلك من الرموز الحسية، التي طالما أشار بها الصوفية لمعانيهم الذوقية.

وها هي ذى «الوسيلة» بأبياتها التي تمثل أحد روائع الشعر الصوفي:

ولما صفا قلبي وطابت سريرتي ... وناد مني صحوي بفتح البصيرةِ

شهِدْتُ بأن الله مولي الولايةِ ... وقد مَنَّ بالتصريفِ في كُلِّ حالةِ

سقاني الهي من كئوس شرابهِ ... فأسكرنى حقًا فَهِمْتُ بسكرتِي

وحكمني جمع الدِّنان بما حوي وكل ملوك العالمين رَعَّيتي

وفي حاننا فأدخل تر الكأسَ دائرًا وما شرب العشاق الا بَقيَّتي

* * *

رفعت علي من يدعي الحبَّ في الوري فقربني المولي وفزتُ بنظرةِ

وجالت خيولي في الأراضي جميعها وزُفَّتْ لي الكاساتُ من كل وجهةِ

ودقت لي الريات في الأرض والسما وأهل السما والأرض تعلم سطوتي

وشاءُوسُ ملكي سار شرقا ومغربًا فصرت لأهل الكرب غوثًا ورحمةِ

فمن كان مثلي يدعي فيكم الهوي يطاولني إن كان يقوي لسطوتي

* * *

أنا كنت في العُلَيَّا بنور محمدٍ وفي قاب قوسين إجتماع الأحبةِ

شربت بكاسات الغرام سلافةً بها إنتعشت روحي وجسمي ومهجتي

وصرت أنا الساقي لمن كان حاضرًا أدير عليهم كرةً بعد كرةِ

وقفت بباب الله وحدي موحدًا ونوديت ياجيلاني: أدخل لحضرتي

ونوديت ياجيلاني: أدخُلْ ولاتخفْ عُطيتُ اللوا من قبل أهل الحقيقةِ

* * *

ذراعي من فوق السمواتِ كُلِّهَا ومن تحت بطنِ الحوت أمددتُ راحتي

وأعلم نبت الأرض كم هو نبتةٌ وأعلم رمل الأرض عَدًّا لرملةِ

وأعلم علم الله أحصي حروفه وأعلم موج البحر عَدًا لموجةِ

وماقلت هذا القول فخرًا وإنما أتي الإذْنُ حتي تعرفوا مِنْ حقيقتي

وماقلتُ حتي قيل لي قُلْ ولاتخفْ فأنتَ وليِّ في مقامِ الولايةِ

* * *

أنا كنت مع نوحٍ أشاهد في الوري بحاراً وطوفانًا على كف قدرتي

وكنت وإبراهيم ملقي بناره وما برد النيرانَ إلا بدعوتي

وكنت مع إسماعيلَ في الذبح شاهدًا وما أُنزلَ المذبوحَ إلا بفتيتي

وكنت مع يعقوبَ في غشو عينه وما برئت عيناه إلا بتفلتي

وكنت مع ادريسَ لما ارتقي العلا وأُسكِنَ في الفردوسِ أحسن جنةِ

* * *

وكنت وموسي في مناجاةِ ربه وموسي عصاه من عصاي استمدتِ

وكنت مع أيوب في زمنِ البلا وما برئت بلواه الا بدعوتي

وكنت مع عيسي وفي المهدِ ناطقًا وأعطَيْتُ داودًا حلاوةَ نغمتي

ولي نشأةٌ الحبِّ من قبل آدم وسري سري في الكونِ من قبلِ نشأتي

أنا الذاكُر المذكورُ ذكراً لذاكرِ أنا الشاكرُ المشكورُ شُكراً بنعمتي

* * *

أنا العاشقُ المعشوقُ في كل مضمرِ أنا السامعُ المسموعُ في كل نغمةِ

أنا الواحدُ الفردُ الكبُيرِ بذاته أنا الواصفُ الموصوفُ ـ علمُ الطريقة

مَلَكْتُ بلاد الله شرقًا ومغربًا وان شئتُ أفنيت الأنامَ بلحظةِ

وقالوا: فأنت القطب ـ قلت مشاهدًا وتال كتابَ الله في كل ساعةِ

وناظُر ما في اللوح من كل آيةٍ وما قد رأيتُ من شهودٍ بمقلتي

* * *

فمن كان يهوانا يجي لِمحَلّنَا ويدخل حمي السادات يلق الغنيمةِ

فلا عالمٌ إلا بعلمي عالمٌ ولا سالكٌ الا بفرضي وسنتِي

ولا جـامعٌ إلا ولي فـيـه ركـعـةٌ ... ولامنبـرٌ إلا ولي فـيـه خُطْبـتي

ولولا رسـولُ الله بـالعـهـدِ سـابقٌ ... لأغْلَقْتُ أبـوابَ الجـحـيم بعظمـتِي

مُـريدي لك البشـري تكون علي الوفـا ... وإن كنتَ فـي هَمٍّ أُغِـثْكَ بِهِـمَّـتي

مـريدي تمـسك بي وكن بـي واثقًـا ... لأحـمـيكَ في الدنيـا ويومِ القـيـامـةِ

وكن يامـريدي حـافظًا لـعـهـودنا ... أكن حـاضـر الميـزان يَوْمَ الوقـيـعـةِ

وإن شـحـتْ الميـزانُ كـنت أنا لهـا ... بعين عـنايات ولطـف الحـقـيـقـةِ

حَـوَائـجكُم مُـقـضِـيـةٌ ـ غـيـر أنَّني ... أُريدُكُـمُـو تمشون طُرْقَ الحـمـيـدةِ

وأوصـيكُمـو كـسـر الـنفـوس فـإنَّها ... مـراتب عـزٍّ عـند أهلِ الطـريقـةِ

ومَنْ حـدثـتـه نفـسـه بتـكبـرٍ ... تجـدهُ صـغـيـرًا في عـيـونِ الأقلة

ومن كـان في حـالاتـه متـواضـعًـا ... مع الله ـ عَـزَّتُهُ جَـمـيعُ البـريةِ

* * *

مريضة الأجفان..

وقــفـــا بي علي الطلول قـليــــلا
نتــبـــاكي، بـل أبـك مما دهـانـي
الهــوي راشــقي بغــيــر ســهـــام
الـهـــوي قـــاتـلي بـغـــيـــر سنان

« ابن عربي »

هذا هو شيخ الصوفية الأكبر بلا منازع. انه أيضا الفيلسوف الصوفي الأول، وأكثر أعلام الصوفية اثارة للجدل في عصره، وماتلته من عصور. انه أبوبكر محمد بن علي، وشهرته محيي الدين قال فيه محبوه: انه القطب والعارف بالله والولي، وقال فيه أعداؤه: انه الزنديق والمشرك.

وينحدر هذا القطب الصوفي الكبير من قبيلة حاتم الطائي، واسمه «المرسي»، حيث كانت ولادته بـ«مرسية» ببلاد الأندلس سنة ٥٦٠هـ، وأيضا عرف هناك باسم «ابن سراقة»، أما في الشرق فقد أعطوه اسم «ابن عربى» بدون أداة التعريف تمييزا له عن القاضي أبي بكر ابن العربي المتوفي سنة ٥٤٣هـ.

وقد عاش ابن عربي بأفكاره، ومواقفه، بفلسفته، ومذهبه، حياة حافلة كانت تثير غيرة خصومه وجلبت عليه الكثير من العداوات، والخصومات، إلي حد إتهامه ذات مرة «بالكفر والالحاد» أثناء اقامته بمصر واصدار حكم عليه بالموت إلا أنه نجا من القتل باعجوبة!

ولابن عربي مؤلفات أربعمائة قد لايفوقها شهرة أي من مؤلفات الصوفية الأخري، وأشهر هذه المؤلفات موسوعته الكبري في التصوف التي أطلق عليها اسم «الفتوحات المكية»، ويليها في الأهمية كتاب «فصوص الحكم»، وهو الذي ألب عليه الفقهاء، وأشهرهم الامام ابن تيمية، وهناك أيضا كتابه «التفسير الصوفي للقرآن».

ولم يكن ابن عربي الذي استقر نهاية حياته في دمشق حتي توفي ودفن بسفح جبل «قاسيون»، مجرد قطب من أقطاب الصوفية، وانما كان رائدا من رواد مدرستهم الشعرية، يصدح في سماء الروح، ويغرد في عوالم النفس، وله أشعار كثيرة أعذبها ماجاء في ديوانه «ترجمان الأشواق» إحدي رائعات الغزل الصوفي.

وفي قصائد ابن عربي مشاهدة صوفية تظل النفس فيها مأخوذة بالجمال الالهي تجلياته في الموجودات، فتحب الله في كل شيء، كما تحب كل شيء من أجل الله،

ويستغرقها الحب لله، فاذا جاءت الغزليات لهند، أو ليلي أو سعاد مثلا فإنما المقصود هو الله، فهو وحده الجمال الحقيقي الجدير بالحب.

وسوف نعرض هنا لابن عربي قصيدته «مريضة الأجفان» وهي احدي رائعات شعره الخالد:

مرضي من مريضةِ الأجفانِ	عللاني بذكرها، عللاني
هفت الوُرْق بالرياض وناحتْ	شجْوُ هذا الحمامِ مما شجاني
بأبي طفلةٌ لعَوب تهَادَي	من بنات الخدوربين الغواني
طلعتْ في العيانِ شمسًا، فلما	أفلتْ أشرقتْ بأفقِ جَناني

* * *

ياطلولاً برامةٍ دراسات	كم رأتْ من كواعبٍ وحسانِ
بأبي ثم بي غزالٌ ربيبٌ	يرتعي بين أضلعي في أمانِ
ماعليه من نارها فهي نور	هكذا النورُ مُخمدُ النيران

* * *

يا خليليَّ عرجا بعياني	لأري رسْم دارها بعياني
فاذا ما بلغتما الدار حُطا	وبها صاحبيَّ، فَلتبكياني
طال شوقي لطفلةٍ ذات نثرٍ	ونظامٍ ومنبرٍ وبَيانِ

* * *

من بناتِ الملوك من دار فُرسٍ	من أجلِّ البلاد من أصْبهانِ
هي بنتُ العراق بنتُ إمامي	وأنا ضدّها سليلُ يمانِي
هل رأيتهم ياسادتي أو سمعتم	أن ضدَّين قطُّ يجتمعانِ

* * *

وقفا بي على الطلولِ قليلاً نتباكي، بل أبْكِ مما دهاني

الهوى راشقي بغير سهامٍ الهوى قاتلي بغير سنانِ

عرفاني إذا بكيتُ لديها تُسعداني على البُكا تُسعداني

* * *

وأذكرا لي حديث هندٍ ولبنى وسليْمى وزينبٍ وعنانِ

ثم زيدا من حاجر وزرود خبراً عن مراتع الغزلان

واند باني بشعرِ قيسٍ وليلى أكؤُسًا للهوى بغير بَنانِ

والهوى بيننَا يسوقُ حديثًا طيبا مطربا بغير لسانِ

لرأيْتم ما يذهبُ العقلُ فيه يمنٌ والعراقُ معتنقانِ

* * *

كذب الشاعر الذي قال قبلي وبأحجار عقْله قد رماني

« أيها المنكح الثريَّا سُهيْلاً عَمْرَكَ الله كيف يلتقيان

هي شاميةٌ إذا ما إستهلَّت وسُهيلٌ إذا إستهلَّ يماني

* * *

إلهي..

إلـهي ضـــاع عـــمـــري في غـــرورٍ

وفـــي لـهــــــــوٍ وفـــي لـعــبٍ يـطــولُ

إلـهـي غـــــافـــــــر الـزلاتِ يـا مَـنْ

تـعــــالي، مـــالـه أبـدا مـــثـــيـلُ

« أحمد البدوي »

شاعرنا الصوفي شيخ العرب أبو العباسي السيد أحمد البدوي القرشي الذي ولد بمدينة فاس بالمغرب سنة ٥٩٦هـ ، وتوفي في طنطا سنة ٦٧٥هـ ، صاحب الطريقة الأحمدية التي كان لها أعمق الأثر في تاريخ مصر دينيا وإجتماعيا واقتصاديا وفكريا.

وقد هاجر السيد أحمد البدوي مع والده وأهله في صغره إلي مكة حيث تلقي علي يد معلميها القرآن، والعلوم الشرعية، ثم هاجر إلي العراق ثم إستقر به المقام في مصر التي استقبلته أروع استقبال بعد أن بلغت شهرته الآفاق لغذارة علمه وقوة إيمانه، وتقواه، وعندما استقر فى طنطا تحولت بوجوده من قرية صغيرة إلي مدينة كبري.

ومن أهم الاثار التي تركها السيد البدوي «حزبه» وهو عبارة عن دعاء وإبتهال إلي الله وإستعاذة به. وأيضا» أوراده» حيث تخصص الطريقة الأحمدية لكل ليلة وردًا، وترتبط الأوراد بالصلوات الخمس.

ومن آثاره أيضا «الوصايا» وهي مدعاة للتقوي، تحض علي الفضيلة، والإكثار من ذكر الله والصلاة. وكذلك «الصلوات» وهي تسابيح لله.

إلهي أنت للاحسان أهلٌ ... ومنك الجود والفضلُ الجزيلُ
إلهي بات قلبي في هموم ... وحالي لا يُسرٌّ به خليلُ
إلهي تب وجُد وارحم عُبَيْداً ... من الأوزار مدمعهُ يسيلُ
إلهي ثوب جِسْميَ دنسته ... ذنوبٌ حِمْلُها أبداً ثقيلُ

* * *

إلهي جُد بعفوك لي فاني ... على الأبواب منكسرٌ ذليلُ
إلهي حُفْني بالطف يامن ... له الغفرانُ والفيضُ الجزيلُ
إلهي خانني جَلَدي وصبري ... وجاء الشيْبُ واقتربَ الرحيلُ
إلهي داوني بدواء عفو ... به يشفي فؤادي والغليلُ

* * *

إلــهــي ذاب قــلـبـي مــن ذنــوبــي	ومن فـعْلِ القـبـيح أنا القـتـيلُ
إلــهــي ردَّني بــرداءِ أنــسـي	وألبـسْني المهــابةَ ياجليلُ
إلهي زحــزِح الأســواء عني	وكنْ لي ناصــراً نـعْمَ الكفـيلُ
إلهي ســيــدي، سندي وجــاهي	فـمـالي غـير عـفـوَك لي مـقـيلُ

* * *

إلهي شَتـتتْ جـيْش إصطبـاري	همـومُ شـرحُـهـا أبداً يطولُ
إلهي صـرتُ من وجـدي أُنادي	أنـا العـاصـي المسئ، أنـا الـذليلُ
إلهي ضـاع عـمـري في غـرور	وفي لـهــوِ وفي لـعـبِ يطولُ
إلـهـي طـالمـا أنـعـمْتَ منَّـا	بجـودِ منك فـضـلاً يسـتطيلُ

* * *

إلـهـي ظـاهـراً أدعــوك ربي	كــذلك بـاطـنًـا أنـت الجـلـيلُ
إلـهـي عــافـني من كـلِّ داءِ	بجـاهِ مُـحـمـدِ نعْم الخليلُ
إلهي غــافــر الزلأت يامنْ	تعــالي، مــالـه أبدا مــثـيلُ
إلـهـي فــاز مـن نـاداكَ ربيِّ	أتاه الخـيـرُ حـقًـا والقـبـولُ

* * *

إلـهي قـلْتَ ادعــوني أجِـبكُمُ	فـهـاك الـعـبـدُ يدعـو ياوكـيلُ
إلهي كـيف حــالي يوم حَـشْـرِ	إذا مــاضــاق بالعــاصي مـقـيلُ
إلـهـي لا الـه ســواكَ ربيّ	تعــالي، لاتُمــثـلهُ العـقـولُ
إلهي مـسـني ضـرٌّ فـأضـحي	به جـسـمي يُبلبله النحـولُ

إلهي نجني من كلّ كربٍ	ويسّر لي أموري باكفيلُ
إلهي هذا الأوقاتُ تمضي	بأعمارٍ لنا، وبها تزولُ
إلهي والني خيراً، وأحسنْ	ختامي عندما يأتي الرسولُ
إلهي ياسميعُ أجبْ دعائي	بطه من تسيرُ له الحمُولُ
فصلِّ عليه ربيِّ كلُ وقتٍ	صلاةً لاتحولُ ولاتزولُ
وآلٍ والصّحاب ذوي المعالي	وفي طي الكلامِ هُمو الفحُولُ

* * *

أطيار الجنان..

بكت عيني غداةَ الدمعِ دمعًا

وأخرى بالبكا بخلتْ علينا

فعاتبتُ التي بخلتْ علينا

بأن غمضتها يومَ التقينا!

« جلال الدين الرومي »

لقد كان الشاعر الصوفي الفارسي جلال الدين الرومي أحد أئمة التصوف، وعلما من الأعلام البارزين في التصوف والنور طوعا ويسعدني بالنوح الذي كان يعد من أكبر علماء عصره أيضا. وقد اختار الامام الرومي، الذي يتصل نسبه بأبي بكر الصديق، رضي الله عنه، التصوف سبيلا في حياته العملية، وإختاره فلسفة روحية لفكره، وفنه الشعري الرفيع.

وشعر الرومي الذي عاش في القرن السابع الهجري (٦٠٤ ـ ٦٧٢ هـ) البناء الذي يستمد عناصره من الانسان، ويتعمق في بحث مشاكله الروحية والعملية، ويحاول أن يرسم له المثل العليا في الفكر والعمل، يعني بالحياة التي يحياها البشر، كما يعني بالمصير، الذي يطمحون اليه.

وعلي الرغم من أن الرومي ليس مبدع هذا الاتجاه في التصوف، الا أنه كان أفصح الألسنة في التعبير عنه، وألمع العقول في إبداع فلسفته، وإبتكار أفكاره.

ويعد كتاب جلال الدين الرومي الشهير «المثنوي» أشهر كتبه علي الاطلاق، وأحد عيون التراث الصوفي، وأعظم ماجاءت به قريحة الفرس، حتي عصرنا هذا. ورغم أنه كتب في أصله بالفارسية الا أنه نظرا لأهميته ومكانته ومنزلته العظيمة، فقد كثرت حوله الشروح والتراجم في مختلف اللغات.

والمثنوي عبارة عن مجموعة مقطوعات مما يطلق عليه في الأدب الفارسي كلمة «غزل»، وهو مؤلف من ستة أجزاء، وقد خلا شعر جلال الدين كله من المدح للسلاطين.

ويقول الرومي في مقدمة الكتاب: «المثنوي»: هذا الكتاب أصول أصول الدين، في كشف أسرار الوصول واليقين، وهو فقه الله الأكبر، وشرع الله الأزهر، وبرهان الله الأظهر، مثل نور مشكاة فيها مصباح، يشرق اشراقا أعظم نورا من الاصباح، وهو جنان

الجنان، ذو العيون والأغصان.. الأبرار فيه يأكلون ويشربون، والأحرار فيه يفرحون، ويطربون وهو كنيل مصر شراب الصابرين، وحسرة علي آل فرعون الكافرين».

ويعد شعر جلال الدين الرومي كما هو الحال في قصصه وحكاياته التي وردت في كتابه «المثنوي» إنعكاسا لطريقته في معالجة الأسرار الخلقية، وحل رموز التصوف الرقيقة، والإبانة عن الخفايا من الحكم والحظات البالغة.

إن شعر الرومي ما هو إلا تعبير عن الحقائق الصوفية وصورة مجسمة للعشق الالهي رسالة العشق من البداية إلي النهاية، وعلي حد تعبيره «لوخلا قلب الانسان من العشق لم يبق من آدميته، إلا صنم من لحم ودم بدل الحجارة، والشعب الخالي من العشق لايعدو أن يكون أكواما من التراب.

ومعظم شعر الرومي باللغة الفارسية اللهم إلا عددا من قصائده الذي نظمها باللغة العربية، وهي أيضا لا يعوزها الإتقان والجمال للفظي والروحي، ونذكر منها هذا الأبيات:

بكت عيني غداة الدمع دمعًا	وأخري بالبكا بخلتْ علينا
فعاتبتُ التي بخلت علينا	بأن غمضتها يوم التقينا!
فديتُك، ياذا الوحي آياته تتري	تفسرها سراً وتكني بها جهرا
وأنشرت أمواتًا وأحييتهم بها	فديتك ما أدراك بالأمر وما أدري!
فعادوا سكاري ـ في صفاتك ـ كلهم	وما طعموا إثمًا ولاشربوا خمرا
ولكن بريقَ القربِ أفني عقولهمُ	فسبحانَ من أرسي وسبحانَ من أسري
سلامٌ علي قومٍ تنادي قلوبهم	بألسنة الأسرار: شكراً له شكرا
فطوبي لمن أدني منَ الجلد دَلْوَه	وفي الدلو حُسْنُ يوسفَ ـ قال: يابشرا!!
يطالع في شعشاع وجنه يوسف	حقائقَ أسرار يحيطُ بها خبرا
تجلي عليه الغيب وأندك عقلُه	كما اندكَ ذاكَ الطور استهدمَ الصخرا
فظل غريقُ العشقِ روحًا مجسمًا	ونوراً عظيمًا لم يدر دونه سترا

وهكذا يناسب شعر الرومي في حلاوة وطلاوة، وتناغم وإنسجام، حاملا معه فكره، ومواقفه، وايمانه وعقيدته، وفلسفته الصوفية التي تركز علي الانسان.

وسوف نقدم هنا قصيدة ابن الرومي الرائعة «أطيار الجنان»، والتي يطلق عليها أيضا «قصر عمر»، ويتناول فيها حياة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، شارحا من خلالها فلسفته الصوفية ونصائحه الروحية، وأفكاره النورانية:

عـبـرة حـارت لمعناها العـقـولُ ... عن رسـولِ الرومِ فـي أرضِ الرسـولِ

جـاء يطـوي البـيدَ سـعـيًا والحـضـر ... يسـأل الأحـيـاءَ عن قـصـرِ عـمـر

أين قـصـر ضم خـيـر المالـكينَ ... والهـدي والطـهـر والـنور المبين

قـصـره لاشك مـرفـوع البناءِ ... أنصـفـوا لو شـيـدُوه في السـمـاءِ

قـال بعضُ النـاس: ياضـيفَ العـربْ ... قـصـرهُ فـوقَ الدراري والـذهب

* * *

لاتـراه في الملا عـين البـصـر ... بـل تـراه في الـعـلا عـين الفـكـرْ

في سـمـاء المجـد مـرفـوع المنار ... ركـنـهُ زهـدٌ وذلٌ وانـكـسـارْ

التـآخـي فـيـه والعـدل بـناء ... ومـبـاني الـنـاس غش وريـاءْ

كـل من أغـلـق عـينيـه هـواه ... فـهـو في الظلـمـةِ حـاشـا أن يراهُ

منزل الأرواح صـدقٌ ووفـاء ... مـنزل الأجـسـامِ لونٌ وطـلاءْ

* * *

مـالـقلبي بات بـالشكـوي ينـوح ... إن قـومي حـالهـم من قـوم نوح

أسـد لـوا جـهـلاً علي النور الحـجـابا ... بل أصـمـوا السـمع واستـغـشـوا ثيـابا

إن نار الحـقـدِ في قلـب الحـسـودِ ... حـرمـتـه ظل جـناتِ الخـلودِ

ومـــضي الرومـي في شـــوق عظيم يســـأل العـــابرَ عنه والمقـــيم
فـــأهاج الـشـــوقَ منه والهـــيـــامْ صـــوتُ أعـــرابيـــة بين الخـــيـــامْ

* * *

تحت ذاك النـخل في حـصـن حـصين حي مـــولانا «أمـــيـــر المؤمنين»
قـــد تخلـي عن جـــواد ومـــتـــاع ينـشـد الـكنزل المرجي في البـــقـــاع
قـــال: يا ســبـحـــانه رب الوجـــود أين ذاك الـقـــصـــر أو أين الجنودْ؟
لم أكن من قـبل أخـشي قـيـصـيـراً لا، ولا سطوة آســـاد الشـــري
فلمـــاذا أوهن الخـــوفُ جناحي من أمـــيـــر نامَ في غـــيـــر ســـلاحِ؟

* * *

أحـــصـــون يا إلـهي وقـــلاع تـتـــواري خلف هاتيكَ الـرقـــاع
من يخف سلطان ذِي العرش المجـيدْ خـــافـــه كـل قـــريب وبعـــيـــدْ
وبـخـــوف الله فـــاز المؤمنون حـــيـث لاخـــوف ولاهم يحـــزنون
ملك الـعُـربْ جـمـيـعـا والعُـجمْ نائمٌ في غـــيـــر جندِ أوحـــشمْ
عِـبَـرةٌ تروي لجـيلٍ بعـد جـيلْ نـام ظـلُ اللهِ فـي ظـل الـنـخـــيـلْ

* * *

وصـــحـــا الخطاب من بعـــد المنامْ مـثل صحو الـشمس من بـعد الغـمـامْ
أقـــبل الـضـــيـف وأهـداه الســـلامْ وســـــلام الـود يـتـلـوه الـكـلامْ
ســـأل الخطـاب ذا الجـــاه العـظيـمْ عن صـفـات المبـدعِ الـبـر الرحـيمْ

تسكن الأرواحُ أجســـادَ الأنام وهي نور كيف تحيا في الظلامِ

قال سبوح إله الملكوتْ فاطر الأكوان قد سي النعوتْ

* * *

أسكن الأرواحَ أو كارَ الصورْ فاستجابت حين ناداها القدرْ

هذا الأرواح أطيار الجنانِ فارقت أوطانها للامتحانِ

هي كالعطْر طوته الزهراتُ وهي كالفكر حوته الكلماتُ

إنما الألفاظُ نطق ورسومْ والمعاني روح هاتيك الجسومْ

هبطت من وقتها من لازمانْ وثوت في أرضِها من لامكانْ

* * *

عالمُ الغيب له السر المصونْ أمره في خلقِه كن فيكونْ

كلم الورد بسر فابتسمْ عن أريج علم الطير النغمْ

وهو أيضا قال سرًا للحجرْ فجلا منه عقيقا للنظرْ

وهو قد أفضي بسر للسحاب فارتوت من فيضه حمر الهضابِ

عندما أوحي بسرٍ للترابْ صار انسانًا له الكون استجابْ

ذلك العذب الفرات الهاطلُ في فم الحيات سم قاتلُ

ليس يحبو جوهر العلم النقاءْ غير أصداف قلوب الأولياءْ

جدد الخبزُ حياةً ونماءْ حينما أصبح للحي غذاءْ

ومتي أذعن للبحر السحابْ صار بحرًا موجه طامي العبابْ

صاف محبوبك إن رمت الصفاءْ وأفن في المحبوبِ إن رمت البقاءْ

وتجلي سره للأنبياءْ فتساموا فوق معراج السماءْ

* * *

كم عروسٍ جليت للناظرينْ وهي لاتهدي لكل الخاطبينْ

إنزع الأصبع عن سمع اليقينْ تستجب روحك للروح الأمينْ

قيد الجسم بها انشق الحجرْ ويد الروح لها انشق القمرْ

قطر نيسان إذا ما أمطرا في فم الأصداف أضحى جوهرا

كُنْ جليسَ الأنبياءِ المرسلينْ في كتاب اللهِ ربِ العالمينْ

* * *

سقاني محبوبي..

تجلي لي المحبوبُ في كل وجهةٍ
فشاهدتُه في كل معني وصورةِ
وخطابني مني بكشفِ سرائري
فقال أتدريَ منْ أناقلتُ منيتي

« إبراهيم الدسوقي »

هو العارف بالله سيدي إبراهيم الدسوقي (٦٣٣ ـ ٦٧٦هـ) ينتهي نسبه إلي الإمام علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه، وهو من أجلاء مشايخ مصر، وطريقته "البرهامية" تنتشر في مصر وسوريا وتركيا والحجاز واليمن وحضرموت، ومنها فروع كثيرة كالشرنوبية والشهاوية، والسعيدية الشرنوبية.

وللد سوقي كلام كثير علي لسان أهل الطريق منشور في كتبه القيمة، وأهمها «الجواهر» المعروف باسم «جوهرة الدسوقي».

وهناك ترجمة مطولة للشعراني يقول فيها: ان الدسوقي من نسل الحسين، وتفقه علي مذهب الإمام الشافعي، ثم إقتفي آثار الصوفية، وجلس في مرتبة الشيوخ، وحمل الراية البيضاء، وعاش من العمر ثلاثة وأربعين سنة، لم يغفل خلالها عن مجاهدة النفس والهوي والشيطان.

أما مذهب الدسوقي الذي دفن بمدينة دسوق، ولايزال مسجده يقصده الالاف حتي يومنا هذا فقد لخصه العارف بالله نفسه في العبارة التالية:

«من عرف الله وعبده فقد أدرك الشريعة والحقيقة فأحكموا الحقيقة والشريعة ولاتفرطوا إن أردتم أن يقتدي بكم، ولم يكن اسم الحقيقة إلا لأنها تحقق الأمور بالأعمال، ومن بحر الشريعة تنتج الحقائق، والشريعة هي الشجرة والحقيقة هي الثمرة، والشريعة أصل والحقيقة فرع، والشريعة تجمع كل العلوم المشروعة، والحقيقة تجمع كل العلوم الخفية».

وللدسوقي أشعار رائعة في الحب الالهي المفضي إلي الفناء، وشهود الوحدة، وإن كان يقترب قليلا من ابن الفارض، إلا أنه ربما يكون أكثر شفافية، وتلقائية، ورقة، وعذوبة. وهاهي ذى قصيدة الدسوقي النورانية «سقاني محبوبي»:

تجلي لـي المحـبـوبُ في كل وجـهـةٍ فـشـاهـدته في كل مـعـني وصـورةِ
وخـاطـبني مـني بكشفِ سـرائري فـقـال أتدرى من أنـا قلتُ مـنيـتي
فـأنت مـنائي بـلِ أنا أنـت دائمًـا إذا كنتَ أنتَ الـيومَ عينَ حـقـيقـتي

* * *

فـقـال كـذلـك الأمـر لكنه إذا تعـينـت الأشـيـاءُ كنت كنسـخـتي
فـأوصلـت ذاتي بـاتحـادي بذاتـه بغـيـر حلـولٍ بل بتـحـقـيـق نسبـتي
فـصـرت فناءً فـي بقـاءِ مـؤبدٍ لـذات بديمـومـة سـرمـديـةِ

* * *

ويبـني عني فـأصـبـحت سـائلاً لذاتي عـن ذاتي لشـغلي بغـيـبـتي
وأنظـر في مـرآة ذاتي مـشـاهدًا لذاتـي بذاتي وهـي غـايةُ بـغـيـتي
فـأغـدو وأمـري بين أمـرينْ واقفٌ علومـي تمحـوني ووهـمِي مـثـبـتي

* * *

خـبـأتُ له في جـنةِ القـلب مـنزلاً تـرفـع عن دعـد وهـند وعـلـوةِ
ومـا شـهـدت عـيـني سـوي عين ذاتهـا وإن سـواهـا لايـلـم بـفـكـرتـي
بـذاتي تـقـوم الـذات في كـل ذروةٍ أجـددُ فـيـهـا حـلةً بعـد حـلةِ

* * *

سـقـانيَ مـحـبـوبي بكأس المحـبـةِ فـتـهْتُ عـن العـشـاقِ سكرًا بـخلوتي
ولاح لـنا نـور الجـلالـة لوأضـا لصُـم الجـبـالِ الرسـايات لـدُكّتِ
وكنت أنـا السـاقـي لمن كـان حـاضـرًا أطوفُ عـليـهـم كَـرةً بـعـد كـرةٍ

* * *

وناد مـني سـرًا بسـر وحـكمـةٍ وأن رسـول الله شـيـخي وقـدوتي

وعـاهدني عـهـداً حـفـظتُ لعـهـدهِ وعـشتُ وثيـقًـا صـادقًـا بمحـبـتِي
وحكّمني فـي سـائر الأرض كُلِهـا وفـي الجنِّ والأشـبـاح والمرديّـةِ

* * *

وفي أرض صين الصين والشـرق كُلِّهـا لأقـصـي بلاد اللـه صـحَّت ولايتي
أنا الحـرف لا أُقـرأ لـكل مـناظـرِ وكلُّ الـوري من أمـر ربِّي رعـيَّـتي
وكم عـالمٍ قـد جـاءَنا وهو منكرٌ فـصـارَ بفـضل اللهِ من أهـل خـرقـتي

* * *

ومـا قلـتُ هذا القـول فـخْـراً وإنما أتي الإذن كـي لايجـهلون طـريقـتي
غنيت عـن الدنيـا بـفـيـضِ عطـائه وأيُّ عـطاياهـم يداني عـطيّـتِي؟
وصـرتُ علي بُعْـدِ المسافـاتِ واصـلاً لأدني دنُّـو في إرتـفـاعي لـغـايـتِي

* * *

فـوجه الحـبيب الحقِّ مـشرق وجـهـتي ونورُ الحـبـيـب الحقِّ سـاطع قـبـلتي
وفي القلب أشـواقٌ يتـرجع فـيـضُهـا عن الألقِ السـامي إلي قُـدْسِ حـضْـرةِ
شـهـدت وشـاهـدنا، وطابت نفُـوسنا وقـد لـذَّ لي ذلِيٍّ إليـه وخـشـيـتِي

* * *

أحـنُّ عـلـي ذلٍّ، وأهـوي عـلـي هـدي وأسـري علي علـم لأنوارِ طلعـةِ
رضـيـتُ به حـتـي دخـلت رياضـه فـأنعـم بهـا من روضـة أيِّ روضـةِ
ومـا لـذة العـشـاقِ إلا يـقـينهُم بشـمل جـمـيع بـعـد طـول تشـتتِ
وأغـسلُ قلـبي من سـواك، ولم أجـد لنفـسي إلا نـور ذاتك بغْـيـتِي
تعـاليتَ بـالعطفِ الكريمِ، رعـاية فَـبـاركْتَ زلاتَي وآمَّنْتَ روعـتِي

* * *

تعشقت نور الله..

إذا قـــيل لي أطلب قلت ربي مطلبي

وان قـيل لي اشـرب قلت أنواره كـأسي

وكل عهود قد تنكس أصلها

ولكن عهد الله باق بلا طمس

« الشيخ على عقل »

هذا الشاعر يمثل السمو الروحي في الأدب الصوفي كما يبدو لمن يتتبع مانظمه من أشعار في الحب الالهي، وما خلفه من ترانيم صوفية، ومدائح نبوية تفيض رقة، وتقطر عذوبة. والشاعر الصوفي الكبير الشيخ علي عقل ليس مجرد أحد أقطاب الشعر الصوفي فقط، وانما رائد من رواد الاتجاه الحسي في مدرسة الأشعار الصوفية ـ إذا جاز التعبير ـ وصاحب صوت شعري شجي، يؤثر القلب، ويستحوذ علي الفؤاد. أنظر اليه يقول:

وان الوردَ يذبُلُ بعد وقت ... وورد الحب كانَ به ذُبولي

وريٌّ الناس من ماء ولكنْ ... شرابُ الحب يذْكي مِنْ غليلي

أداري الحبَّ حتي لَويراني ... أخو وجد تشككَ في نُحولي

وبي نارٌ لو استقصي لظاها ... لحقر وجدَه وحَذا سبيلي

ولي بالوجدِ سرٌّ لا يُضَاهَي ... ومَا أنَا في المحبَّةِ بالهزيل

ورغم أن حياة الشيخ علي عقل لم تمتد طويلا حيث وافته المنية عن أربع وخمسين عاما فقط (١٨٩٤ ـ ١٩٤٨م) إلا أنه ترك آثارا عظيمة تدل علي ماكان له من مكانة وتأثير علي الساحة كأحد علماء عصره في التصوف والعلوم الشرعية.

فقد كان الشيخ علي عقل الذي فقد بصره صغيرا، ووهب حياته لدراسة علوم القرآن والدين، ودرس في الأزهر الشريف، علما من أعلام عصره، يقصده طلاب العلم من كل صوب، ويتعشقه المريدون، وتنسج حوله مجالس الذكر والانشاد.

ومن أشهر أعمال هذا الصوت الصوفي العذب ديوانه الشعري، الذي أطلق عليه اسم «الالهام»، ويضم بين ضفتيه مانظمه من قصائد روحية، وترانيم صوفية، ومدائح نبوية.

وسوف نورد هنا قصيدة «تعشقت نورالله» التي تمثل قمة السمو الروحي في الشعر الصوفي:

قتلتُ هوي نفسي، فعشتُ بلا نفْسِ ... وجافيتُ أنسي، فانحدرتُ إلي الأنْسِ
ولم أُبد أمري للعباد، فطالما ... كتمتُ الذي ألقي عن الجنِّ والإنْسِ
وأدركتُ بالوجدانِ سرَّ أحبتي ... وعانيتُ آياتِ اليقين بلا لبْسِ

* * *

وعشتُ زماني لست أحفل بالوري ... وكيف، وقلبي هام في مشهدِ القُدْسِ
وعلمت غيري ما أفادَ من الهُدي ... فلم يبْقَ ذو فهمٍ لديَّ علي طمْسِ
إذا وُسّد الناسُ القبورَ، فإنني ... جعلتُ التقي والذكر بين الوري رمْسي

* * *

ولم أخْشَ من بأس ولم أخشَ طاغيًا ... ومن يخشَ ذات الله لم يرَ من بأسِ
وهل غيُر ذاتِ الله للنفسِ مطلبٌ ... حرامٌ سوي الرحمنِ يدخلُ في نفسي
وتوجّتُ بالقرآن نفسي عقيدةً ... أصونُ به نفسي من الزّيغ والدسِّ
وما اتخذت روحي سوي الله غايةً ... فَتم الهدي للروح والقلب والحسِّ
وإن شرب الناس الطِّلا وتصببوا ... فسنّةُ خلق الله في شربها كأسي

* * *

وإن رفع المثرون عُجبًا رؤسهم ... رفعتُ بذكر الله فوق الوري رأسي
وإن جعلوا الشمس اهتداءً ليومهم ... جعلتُ رضا ربِّي وآيته شمسي
وإن غرسوا زرعًا لنيل حصاده ... وإن غرسوا زرعًا لنيل حصاده

* * *

تعشقتُ نور الله وهو بصيرتي ... وقد وضح البرهان من آية الكرسي
ومذ شاهدت روحي جلالكَ وارتقتْ ... تجّردتُ عن معْناي في عالمِ الحسِّ
أحبّك ياربي محبّةَ موقنٍ ... ومن قوةِ الايمانِ أُصبح أو أُمسي

* * *

فـؤاديَ قـد أبعدتُ عـن مشـهـد الوري ... فطُهّـر في نجـواكَ من ظلمـةِ الرِّجْسِ
أطوف عـلي الأبـوابِ قلبيَ مُـوجَعٌ ... وليس سـوي رحـماكَ لـلقلبِ من نِطْسِ
وأعـد مني فـي الحبِّ علـمي بقـدْرِه ... فليس غـرامي فـيـه يدرك عن قـيْسِ

* * *

ولم أعـشق الـدنيـا فـتلك مـجـازة ... تهيُّ لـلأخـري وفي فـوتهـا عـرُسي
لقـاؤك يـارحـمنُ عـيـدي وعُـدتي ... ونُورك غـيـثي وهو لـي في الوري أُنسي
وبحْـرُك مـنه قـد لقـيـتُ جـواهري ... بشـاطئـه سُـفـني علي لُجِّـهِ غَـطسي

* * *

وطيبُ الـوري ورْسٌ ومـسك وعنبـرٌ ... وطيـبي من مـحيـاك أسـمي من الورسِ
ولستُ مـن الدنيـا، أمـيلُ إلـي العـلا ... فـإنَّ عُـلا الدنيـا لأصـحـابه يُـنسي
أُمـتع أعـضـائي بـذكـركَ دائمًـا ... وهل غـيـرُ ذكْـر الله يسكنُ في نفسي

* * *

وكُلُّ رجـائي أن أحـبك صـادقًـا ... إذ الصـدقُ في الوجدان مـرتبة القُـدْسِ
ومـا فـضلهُ وقـفٌ علي أيِّ عـالمٍ ... وحـقك مـا حُـدَّ العطاء علـي جنس
إذا رضي الرحـمن عن قلـب عَـبْـده ... جرت مـركَبُ الأقدار معـه علي اليبْس

* * *

تـخـلَّ ولاتحـفـلْ بجـنٍّ ولا انْـسِ ... وعشْ في هوي الرحـمن تسعـدُ بالأنْسِ
وأقـبـل علي مـولاك بالـقلب مـخلـصًا ... وأسـلـمْ وسـلـم واتَـجَّـه
وخُـذْ لك بـالايمان أصـدقَ وجـهـة ... وطهـر بهـا نفسًـا عن الـغي والرجس

* * *

تجـردْ تجـــدْ مــولاكَ أكــبـرَ نــاصــرٍ وفـوض له مـاكـان في الغـد والأمْسِ
حـــيـــاةُ الوري حُلوٌ ومـــرٌ وإنما حـلا المرءُ بالتـوحـيـد من رقـة الحسِّ
ومـن لايـري إلا الإلـه مـــــراده حرامٌ عليه الخوضُ في العرشِ والكرسي

* * *

ومن يتـــعــــشق نُورَه وجــــلالَهُ فليس له التـشـبـيـبُ بالبدْرِ والشـمسِ
وانـك لـو عظـمْـتَ ديـنَك عــــالمًا وعـــالمت بالحــسْني وأدَّبـتَ للنَّفسِ
وكنت عـلي الأحــداث بالله راضـيًــا سـواءٌ عليك المـوتُ أو سـاعـةُ العُـرْسِ

* * *

ســعــدْتَ من الدنيــا بربِّك مــحُــسنًا ونلـت من الأخـــري عـطاء بلا بـخْسِ
يقــولون لي من أنت؟ قـلتُ: مـوُحـدٌ إلـي ربه يـســـعـي ولـم يَـرَمن بـأسِ
إذا قـــيل لي أطـلبْ قلـت ربِّيَ مطلـبي وإن قـيل لي أشـربْ قلتُ أنواره كـأسي

* * *

وكلٌّ عــهـــودٍ قــد تنكسَّ أصلهـــا ولـكـنَّ عـــهـــد الله بـاقٍ بلا طَـمْسِ
سلوني عن الـعـشـاق قـد ذقتُ حُـبـهَم وإنـي لهـم رأسٌ إذا كـــان مـن رأسِ

* * *

ومـا هم سـوي أعضـاء جـسْـمي وبزتي أصـــافـحــهم مــا شئتُ لـكن بلا لمسِ
ومـاحـيلتي إلا انـكسـاريَ في الحـــمي وإن إنكسـار القلب يـكشف عن قـدسي
وحلوُ الـهـوي عندي لقـــاء أحـبـــتّي ومرُ الهـوي عندي وفي هجرهم تـعْسي

* * *

وأعــرف رحــمــانـي وأُدركُ عــفــوهُ وأنهـضَ مــعــتــزا ومـــا أنا بالمنْسي
وانَّ حــبـال الوجـدِ تربط مــهـجــتي وقلـبي بحب الـله يعــبـق كـــالورسِ
وإن كنت فـي سـعـدٍ فـذلـك فـضلهُ وإن لم أكنْ من سـادة العُرب والفُـرْسِ

* * *

فـقل للذي يُزجـي الشـراع دع الكريَ تجـد سُفن الاحـسـانِ تجري علي اليـبسِ
وسـرْ مـوقـنا أن الاجـابة للهـوي إذا مـادعـا الداعي ولاتكُ في حـدْسِ
فـكلُّ الـذي تـرآه والكـون خـلقـهُ ومـا نفع التـفـريـقُ بالنوْع والجنسِ

* * *

حـسبتُ الهـوي سهـلاً فخُضتُ عبابَه فطـوراً به أطـفـو، وطوراً بـه غَطْسي
إلـي أن أتـتـنْـي مـنْ لـدُنـه عـنـايـةٌ وصلـتُ بهـا بَرَّ السـلامـةِ والأنسِ

* * *

فطرة النفس..

والكل أنت بمعني لاخفاء به

والنور بحجبه كالماء فى اللبن

والعبدُ محتجبٌ فى عزٍّ مالكه

دقت معارفه فى الدهر والزمن

« أبو العباس المرسي »

المرسى أبو العباس أحد أعلام التصوف فى عصره ، وأحد الذين تركوا أثرًا كبيرًا بعد وفاتهم، فى مريديهم، وتلامذتهم وخاصة فى الاسكندرية حيث أقام معظم سنى عمره. والإمام العارف بالله شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عمر الخزرجى الأنصارى المرسى البلنسى، ولد فى مرسية ببلاد الأندلس، تلك المدينة التى نسب إليها فسمى "المرسى" فى سنة ٦١٦ هـ

وعلى الرغم من أن أبى العباس المرسى قد وفد الي الاسكندرية مع أستاذه ومعلمه أبى الحسن الشاذلي سنة ٦٤٢ هـ ، الا أن نجمه سرعان ما سطع فى سمائها، حتي أصبح كعبة الباحثين عن العلم، وخاصة بعد موت شيخه الشاذلى ، الذى تتلمذ على يديه.

كان المرسى يلقى الدروس ، ويلقن أتباعه ومريديه، مبادىء السلوك القديم، وسبل الوصول الى رضاء الله، وفلسفته فى الزهد ،التصوف، متخذا من جامع العطارين مركزا لدعوته، وحلقة لدرسه.

وقد كان المرسى أبو العباس ذا حس مرهف، وعاطفة رقيقة ، وقلب ينبض بذكر الله، يجمع بين نفاذ البصيرة. وشفافية الرؤية، والنزوع الى الحكمة ، مما ظهر واضحا جليًا فيما خلفه من شعر رائع هو احدى الدرر التى تزين جبين الأدب الصوفى.

وسوف نعرض هنا لقصيدة المرسى أبو العباس «فطرة النفس» التى يشرح فيها فلسفته فى التصوف فى تناغم وانسجام وترابط رائع في لوحة شعرية جميلة مفعمة بالحلاوة والرقة والعذوبة.

إن كنت سـائلنا عن خـالصِ المنن — وعـن تآلف ذات النفسِ بالبـدنِ
وعن تشـبـثـهـا بالحظِّ مـذ ألفت — أدرانها فـغـدَت تشكو من العَطَنِ
وعن بـواعـثـهـا بالطبع مـائـلةً — تهوى بشـهـوتها فى ظلمـة الشـجنِ
وعن حـقيقـتها فى أصل معـدنها — لا ينثنى وصـفُـهـا منها إلى وثنِ
وعن تـنزلهـا فى حكـمـهـا ولها — علمٌ يفـرقها فى القُبح والحسَنِ

* * *

فـاسـمعُ هُديتَ علومًـا عـز سالكها — على البـيـان ولا يغـررك ذو لَسنِ
قـصـداً الى الحقِّ لا تخفى شـواهدُها — قامت حـقـائقـها بالأصـل والفننِ
يا سـائلى عن علـوم ليس يدركـهـا — ذو فكرة بمفـهـوم لا ولا فطنِ
لكـن بنور علـيٍّ جـامعٍ خـمـدَت — له الـعـقـولُ وكـلُّ الخلقِ فى وَسَنِ
خُـذها اليك بحق لستَ جـاهلهُ — والأمـر مُطلعٌ والحقُ قـيدنى

* * *

على الحقـيقـة خُذْ علم الأمور ولا — تحجبك صورتها فى عَالم الوطن
فـفطرة النفسِ سـرٌّ لا يُحيط به — عـقل تقـيـد بالأوهامِ والدرنِ
لكنهـا بـرزت بالحكمِ قـائمـةً — حـتى تألفـهـا السكانُ بالسَّكنِ
وكيْ يقـال عـبـيـدٌ قـائمـون بما — ألقى من الأمـر قـبل الخلق والمحن

* * *

والنفس بين نزول فى عـوالمهـا — كـآدمٍ وله حـواءٌ فى قـرَنِ
والروح بين تـرقٍّ فى مـعـارجـهـا — وهى الموافق للتـعـريـف والمننِ
من الحـجـاب دنت أنوارها فـبـدتْ — نـوراً تـنزل بـين الماء والـدِّمَـنِ
مـثـالهـا فى العُـلا مـرآة معـدِنهـا — ألطافـهـا خـفـيـة كـالسِّر فى العلنِ

* * *

زيتونة زيتها نورٌ لصاحبها قامتْ حقائقها بالأصلِ والقُنَنِ

ونار دعوتها ماءٌ لشاربها مُدَّت هدايتها فى الكونِ والكُبَنِ

والكل أنت بمعنى لاخفاء به والنور يحجبه كالماءِ فى اللَّبَنِ

والعبدُ محتجبٌ فى عزٍّ مالكه دقت معارفه فى الدهرِ والزمنِ

* * *

بحار الهوى..

يا من به علقت روحي فقد تلفت
وجدا فصرت رهينا تحت أهوائي
أبكي على شجني من فرقتي وطني
طوعا ويسعدني بالنوح أعدائي

« الحلاج »

نحن هنا بصدد الحديث عن شاعر صوفى آخر بلغت شهرته الآفاق فى الشرق والغرب، انه الحسين بن منصور الحلاج ، صاحب المأساة المشهورة فى تاريخ الفكر والتصوف باسم "مأساة الحلاج".

وقد ولد الحجاج ببلاد فارس سنة ٢٤٤ هـ ، واختلف الناس فى تسميته بالحلاج، بعضهم نسب ذلك إلى أبيه الذى كان يعمل بصناعة الحلج، وآخرون يقولون: إنه سمى كذلك لأنه كان يكاشف الناس بما في قلوبهم ، فأطلقوا عليه «حلاج الأسرار».

ورغم أن الحلاج، كان يطوف البلاد يبشر بالإسلام، ويعلم الناس طريقته، وكان يحاول هداية الانسانية كلها، عن طريق الاسلام الا أن نهايته كانت مأساوية بصورة مفزعة.

كان الحلاج بمجرد أن استقر به المقام فى بغداد، ينزل الى الناس يعظهم، يهديهم، وكان يلقى دعواه للهدايا شعرا فيسحر الألباب.

ولما ضاف رجال الدولة بنفوذ الحجاج، وصيحاته ونداءاته، ودعواته الاصلاحية، وخافوا أن يوقظ همة الناس، اتهموه بإدعاء الألوهية، والتزندق ، وشكوه الى الخليفة «المقتدر» فأمر بالقبض عليه.

واقتادوا الحلاج الى بغداد وناظر العلماء وتطاولوا عليه، ونفى ادعاء الألوهية، وذكر أنه ليس الا عبدا لله يؤمن به ويرسله، ولكنه يدعو الى الحق وينشد الخير للمسلمين ولا يقر الظلم، وتبرأ من الشهود الذين استدعوهم، واستعاذ بالله من الدعوى، وهاجت الجماهير المحتشدة خارج المحكمة، واستمر الحلاج متحفظا عليه مدة تسع سنوات الى أن صدر أمر باعدامه.

وقبل أن يضرب السياف عنقه كانت آخر كلمة له: «حسب الواجد أفراد الواحد له» فسمع بهذه الكلمة أحد من المشايخ الا ورق له، ثم ضربوا عنقه، ولم يبق ببغداد الا من

شهد قتله، وصبوا على الجسد النفط وأشعلا فيه النار ثم حملوا الرماد على رأس منارة لتذروه الريح، ، وكان ذلك في سنة ٣٠٩ هـ ، ونصبوا الرأس يومين على الجسر ثم طيف به فى خراسان.

وللحلاج كتب كثيرة تزيد على ٤٨ كتابا معظمها أحرق أو مذق، أو استولى عليه خصومه وأعداؤه، ولم يبق منها جميعا سوى «طاسين الأزل».

أما شعر الحلاج فقد بقى محفورا فى قلوب أحبائه، مستقرا فى صدورهم، ولم يستطع أحد أن يتخلص منه ككتبه، فقد كان الحلاج شاعرا روحيا ليس له مثيل، يلقى الشعر فيسحر الألباب.

وسوف نقدم هنا أحلى ما كتب الحلاج من شعر فى مواضع مختلفة، وفى أحداث مختلفة من حياته، وسنبدأ بأحلى ما كتبه في وصف موعد حب، ثم أشعار أخرى من أروع ما كتب فى الحب الالهى والتصوف:

لى حبيب أزور فى الخلوات ... حاضر غائب عن اللحظاتِ

ما ترانى أصغى اليه بسرى ... كى أعى ما يقول من كلماتِ

كلماتٍ من غير شكلٍ ولا نقْطٍ ... ولا مثل تغمةِ الأصواتِ

فكأنى مُخاطبٌ كنتَ إيّاه ... على خاطرى، بذاتى لذاتى

حاضرٌ غائب قريبٌ بعيدٌ ... وهو لم تحْوِه رسُم الصفاتِ

هو أدنى من الضمير الى الوهمِ ... وأخفى من لائح الخطراتِ

* * *

ومن أعجب الأشياء ظبىٌ مبرقعٌ ... يشير بعنابٍ ويومى بأجفانِ

ومرعاهُ ما بين الترائبِ والحشا ... ويا عجبًا من روضة وسط نيرانِ

لقد صار قلبي قابلاً كل صورةٍ ... فمرعى لغزلانٍ وديرٌ لرهبانِ

وبيتٌ لأوثان وكـــعــبــةُ طائفٍ — وألواحُ تـوراةٍ ومـصـحـف قـرآن

أدينُ بدينِ الحبِ أنّى تـوجَـهـت — ركـائـبـهُ فـالحبُ دينى وإيمانى

لنا اسـوةٌ فى بشـر هند وأخـتـهـا — وقـيـس ليلى ثم سى وغـيـلانِ

* * *

يـا سـر سـر يـدق حـتـى — يـخـفـى عـلـى وهـّم كـل حـى

وظـاهـراً بـاطـنًـا تجـلـى — لـكـل شـىء بـكـل شـى

ان اعـتـذارى اليـك جـهـل — وعـظـم شـك وفـرط عـى

يا جـمـلـة لكل لـست غـيـرى — فـمـا اعـتـذارى اذًا الـىّ

أدنوا فـيـبـدعـنى خـوفى فـيـقـلـقنى — شـوقُ مُـمكّن فى مـكـنـون أحـشـائى

فكيف أصنع فى حب فـيـقـتـلنى — شوقُ مُمَكنٌ قد ملّ من سقـمى أطبائى

قـالوا تـداو بـه مـنه فـقـلـت لـهم — يا قـوم هل يتـداوى الداءُ بالـدائى

قـحـبى لمولاى أضنانى وأسـقـمنى — فكيف أشكـو الى مـولاى مـولائى

* * *

وقال الحلاج وهم يقطعونه عضواً عضواً:

اقـتـلـونـى يـا ثُـقـاتـى — ان مـن قـتـلـى حـيـاتـى

ومماتـى فـى حـيـاتـى — وحـيـاتـى فـى مماتـى

أنـا عـنـد مَـحْـو ذاتـى — مـن أجـل المـكـرمـات

وبـقـائى فـى صـفـاتـى — من قـبـيح الـسـيـئـات

فـاقـتـلونى واحـرقـونى — بـعـظـامـى الـفـانـيـات

ثم مـــــروا بـرفـــــاتـي   فـي القـــبـــور الـدارســـــات

تجــــدوا ســـر حـــبــيـــبـي   فـي طوايـا الـبـــــاقـــيـــــات

* * *

والله مـــا طـلـعت شــمسٌ ولا غـــربت   الا وحــبّـك مـــقـــرونٌ بأنفـــاسـي

ولا جلستُ الـى قـــوم أحـــدّثـهم   الا وأنت حـــديـثـي بـين جـــلاسـي

ولا ذكـرتُـك مـحـــزونًا ولا فـرحـًا   وإلا أنـت بقـلـبـي بينَ وســـواسـي

ولا هـمـمـت بشـرب الماء من عطش   الا رأيت خـيـــالاً منك في الـكاس

ولو قـــدرْت على الاتيـانِ جـئـتكمـــو   سـعيًا على الوجه أو مشيا على الراس

ويـا فـــتـي الحـقّ أن غنيتَ لـي طربًا   فـغن وارْحـمتًـا من قـلبك القـاسي

مـــالي وللناس كـم يلحْـوننا سـفـهـا   ديـنـي لنفـــسـي وديـن الناسِ للـناسِ

* * *

لبـيـك لـبـيـك يا ســرئي ونجـــوائي   لبـيك لبـيـك يا قـصـدي ومـعـنائي

أدعـــوك بل أنـت تدعـــوني إلـيك   فـــهـل ناديـت أم ناجــيـت إيائـي

يا عـين عين وجـــودي يا مـــدى هـمي   يا مـنطقي وعـــبـــاراتي وإعــيـــائي

يا كلِ كـلي ويا ســمـــعي ويـا بصـــري   يا جـمـلـتي وتبـاعـيـضـي وأجــزائي

يا مـن به علقـت روحي فـــقـــد تلـفت   وجــداً فـصـــرتُ رهينًا تحـتَ أهوائي

أبكي عـلـى شـجني مـن فـرقـتي وطني   طوعًـــا ويـســعـــدني بالنـوحِ أعـــدائي

* * *

مـــا زلـتُ أطفـــو فـي بحـــار الـهـــوى   يـرفــــــــعـنـي الموجُ وأنــحـطُ

فتارةً يرفعني موجها وتارةً أهوى وأنغطُ

حتى إذا صيرني في الهوى إلى مكانٍ ما لهُ شطُ

ناديتُ يا من لم أبحْ بسره ولم أخنه في الهوى قطُ

تقيك نفسي السوء من حاكم ما كان هذا بيننا شرطُ

❊ ❊ ❊

تباركت مشيئتك يا قصدي ومرادي يا ذات وجودي وغاية رغبتي

يا حديثي وايمائي ورمزي يا جميعي وعنصري وأجزائي

❊ ❊ ❊

تجاسرت فكاشفتـ ـك لما غلب الصبرُ

وما أحسن في مثلـ ـك أن يُنتهك السترُ

وان عنَّفني الناسُ ففي وجهك لي عذرُ

كأن البدرَ محتاجٌ الى وجهك يا بدرُ

❊ ❊ ❊

وحُرمة الود الذى لم يكن يطمع في افساده الدهرُ

ما نالني عند هجوم البلا بأسٌ ولا مسَّني الضرُ

ما قُدَّ لى عضوٌ ولا مفصلٌ ما قُدَّ لى عضوٌ ولا مفصلٌ

❊ ❊ ❊

نديمي غير منسوب إلى شيء من الحيْفِ

دعاني ثم حياني فِعل الضيف بالضيف

فلما دارت الكأسُ دعا بالنطع والسيفِ
كذا من يشرب الراح مع النشرين فى الصيفِ

* * *

أنا سر الحق ما الحق أنا بل أنا حق ففرق بيننا
أنا عين الله فى الأشياء فهل ظاهر فى الكون إلا عيننا
سبحان من أظهر ناسوته سر سنا لاهوته الثاقبِ
ثم بدا لخلقه ظاهراً فى صورة الآكل الشاربِ
حتى لقد عاينه خلقه كلحظة الحاجب بالحاجبِ

* * *

يا موضع الناظر من ناظرى ويا مكان السرِّ من خاطرى
يا جملة الكل التى كلها أحب من بعض ومن سائرى

* * *

الحب ما دام مكتومًا على خطر وغاية الأمن أن تدنو من الحذرِ
وأطيب الحب ما تمَّ الحديث به كالنار لم تؤتْ نفعًا وهى فى الحجر.

* * *

كيف السبيل؟!..

فنحن كدودِ القزِ يحصرنا الذى
صنعنا بدفع الحصرِ سجنًا لنا منا
فكم واقفٍ أردى وكم سائرٍ هدى
وكم حكمةٍ أبدى وكم مملقٍ أغنى

« الششترى »

كان من الأمراء وأولاد الأمراء، فصار من الفقراء وأولاد الفقراء.. هكذا كان يطلق على الشيخ على بن عبد الله النميرى الملقب بالششترى نسبة الى مسقط رأسه قرية "ششتر" بوادى "آش" بالأندلس ولعل السر وراء هذه العبارة التى كان يشار بها الى الششترى (٦١٠ - ٦٦٨هـ) هو نشأته فى أسرة عظيمة الثراء والجاه والنفوذ نظراً لانتسابها الى أمراء البلاد، ثم تحوله برغبته عن حياة الدعة والنعيم الى حياة الزهد والتصوف.

وقد بدأ الششترى الذى حفظ القرآن فى صغره ثم درس الفقه، حياته تاجرا يجوب البلاد شرقا وغربا وظل على هذا النحو حتى حضر حلقة ذكر لاتباع «أبى مدين» الصوفى المشهور، ولزم مجلس محيى الدين بن سراقة تلميذ «السهروردى» ، وأخذ عنه التصوف.

ولكن أكثر ما أثر فى الششترى وأحدث تحولا جذريا فى حياته ، وجعله يتحول الى التصوف بكل جوارحه وحواسه، ويصبح واحدا من أهم أئمة التصوف فى المغرب هو التقائه بأحد أعلام الصوفية الكبار فى عصر المعروف بـ «ابن سبعين».

ويصف الششترى معلمه ابن سبعين الذي التقي به بعد أن أصبح وزيراً وعالماً فى بعض قصائده بأنه «مغناطيس النفوس» و«اكسير الذات»، والحقيقة أن ظهور ابن سبعين فى محيط الششترى أحدث انقلابا فى حياته الروحية. فقد طبق ابن سبعين القاعدة الصوفية الخاصة بضرورة تخليص نفوس المريدين من الغرور والتكبر ، وهو ما يعرف عند الصوفية بـ «كسر حدة النفس».

وقد طاف الششترى بلادا كثيرة حتي وصل مصر واعتكف زمنا بالجامع الأزهر، وتعرف الى الشاذلية، وبلغ اعجابه بها، وإعجاب أصحابها به، الى حد أن بعض المؤرخين ينظرون اليه كأحد اتباع هذه الطريقة.

وقد ترك الششترى الذى عاش بمصر بقية حياته ، حتى لفظ أنفاسه الأخيرة أثناء مروره بمنطقة قريبة من دمياط، فنقله بعض مريديه الى دمياط ليدفن بها، ديوانا يضم عددا من القصائد والموشحات الى جانب بعض الرسائل الصوفية.

وشعر الششترى فى غاية العذوبة وتواشيحه فى غاية الحسن، وأزجاله فى غاية الملاحة، وترى فى سائر ما نظم من شعر الرموز الصوفية المتعارف عليها. انظر اليه كيف يرى حقيقة «الخمر» التى يتحدث عنها الصوفية:

تنبه قد بدت شمسُ العُقارِ ... وقد غلب الشعاعُ على النهارِ

سلافًا قد صفتْ قدمًا وراقت ... أدرْها بالصغار وبالكبارِ

فما عُصرتْ وما جُعلتْ بدَنٍّ ... وما سُبكتْ زجاجتها بنارِ

* * *

ويروى أن الششترى قبل وصوله مصر مر بطرابلس حيث أعجب الناس بعلومه، وخاصة فى الفقه والسنة، وعرضوا عليه البقاء، وتولى القضاء، ولكنه رفض مؤثرا حياة التقشف والزهد، وعندما لاموه، ونعتوه بالجنون أنشد يقول:

رَضِي المُتيَّم فى الهوى بجنونه ... خلُّوه يفنى عمره بفُنونه

لا تعذلوه فليس ينفع عذلكم ... ليس السلُّو عن الهوى من دينه

قسمًا بمن ذُكرَ العقيق لأجله ... قسمَ المُحبٍّ بحبه ويمينه

مالى سواكم غير أنى تائبٌ ... عن فاترات الحب أو تلوينه

مالى اذا هتف الحمام بأيكةٍ ... أبدًا أحنُّ لشجوه وشجونه

* * *

وإلى جانب شعره العمودى ، كان للششتري أزجاله المشهورة، والتى لا يزال يتغنى بها المنشدون فى حلقات الذكر، وخاصة فى المغرب العربى، ومن أشهر أزجاله تلك التى يستهلها قائلاً:

شـــــويخ مــن أرض مـكـنـاس فـى وسـط الأســـــواق يُـغَـنِّـى
ايـــش عـلـــىَّ مـــن الــنـــاس وايـــش عـلـــى الــنـــاس مِـنـــى

ويعتبر الششترى أول من استخـدم الزجل فى التصوف. ولقد بلغت شهرة الششترى فى الأزجال الصوفية الى الدرجة التى جعلت ابـن تيمية يطلق عليه «صاحب الأزجال» و،قد اعتمدت «الششترية» كطريقة أقرب الى التصوف السنى على اعتمادها علي السماع والموشحات التى كان يؤلفها الششترى.

أرى طالـبًـا مـنًّا الزيـادة لا الحُـسـنى بفكر رمـى سـهـمًـا فـعـدًّى به عُـدنا
وطَـالبُـنـا مطـلـوبُنـا مـن وجــــودنـا نغـــيب به عـنًّا لدى الـصـــعق إذ عَـنَّا
تركنا حظوظًا من حـضـيض لُحـوظنا من المقصـد الأقصى الى المطلب الأسنى
وليم نلـف كُنْـه الكـون الا تـوهمًـــا ولـيس بـشيء ثـابت هـكذا ألـفـــينـا
فـرفـض الســوى فـرضُ علينـا لأننا بملة مـــحـو الشـرك والشـك قـد دنًّا
ولكـنه كـيـف الســبـيل لـرفـضـه ورافـضـه المرفـوض نحن ومـــا كُنَّا

* * *

فـيــا قــائـلاً بالوصل والوقـفـة التى حـجب بهـا أسمعْ وأرعـوى مـثلمـا بنا
تقـــيـــدتَ بـالأوهام لما تداخـلت عليـك ونور العــقـل أورثك الســجنا
وهمتَ بأنوار فـــهـــمنا أصـــولهـــا ومَنْبـعـهــا من أين كـــان فـمـا هـمنَا
وقـد تـحـجُبُ الأنوار لـلعـبـد مـثلمـا تقُّـيـد من اظلام نفسٌ حَـوَت ضـغْنا
وأى وصـــالٍ فى القــضـيـة يُـدعَّى وأكـــمل مَـنْ فى النـاس لم يدعِ الأمْنا

* * *

ولـو كــان ســـرُّ الله يـدرك هكـذا لقـال لـنا الجـمـهـور ها نحن مـا خـبنا
فـكم دونـه مـن فـــتـنة وبـليَّـــة وكـم مـهـمـة من قـبل ذلك قـد جًُـبنا
فـلا تلتـفتْ فـى السيـر غـيـراً وكل مـا سـوى الله غـيـر فـاتخـذ ذكـره حِصنْا

وكل مقامٍ لا تقم فيه انَّه حجابٌ فجد السير واستنجد العونا

* * *

ومهما ترى كل المراتب تجتلى عليك فحُلْ عنها فعن مثلها حُلْنا

وقل ليس لى فى غير ذاتك مطلبٌ فلا صورةٌ تُجلى ولا طُرفة تُجنى

وسِرْ نحو أعلام اليمين فأنها سبيل بها يمن فلا تترك اليمنا

أمامك هولٌ فاستمع لوصيتى عِقالٌ من العقل الذى منه قد تبنا

* * *

أباد الورى بالمشكلات وقبلهم بأوهامِه قد أهلك الجنَّ والبنا

محجتنا قطعُ الحجا وهو حِجنًّا وحجُنًّا تتلوه باء بها تُهْنا

يبطِّئنا عند الصعود لأنَّه يود لو أنا للصعيد قد أخلدنا

* * *

تلوح لنا الأطوارُ منه ثلاثةً كسراءٍ ومرئىٍّ ورؤيةِ ما قلنا

ويُبْصرُ عبداً عند طور بقائه ويرجعُ مولى بالفنا وهو لا يفنى

فنحن كدود القزِّ يحصرنا الذى صنعنا بدفع الحصر سحنا لنا منا

فكم واقفٍ أرْدَى وكم سائرٍ هَدَّى وكم حكمةٍ أبدى وكم مُملقٍ أغنى

* * *

شكوى وجواب شكوى..

لقد ذهب الوفاء فلا وفاء

وكيف ينال عهدى الظالمينا

اذا الإيمان ضاع فلا أمان

ولا دينا لمن لم يحيى دينه

« محمد اقبال »

عندما مات الفيلسوف الشاعر المسلم محمد اقبال، الذى وهب عقله وقلبه للمسلمين والبشر جميعا، فقد الاسلام والانسانية جمعاء عالما روحيا ظل -طيلة حياته- يحاول أن ينشىء الناس نشأة أخرى، ويسن لهم فى الحياة سنة أخرى.

لقد كان محمد اقبال الذى قال : كل كلام يصدر عن القلب يترك أثره فى القلوب، صوت الانسانية المعذبة فى كل مكان، المتحدث باسم معاناتها، المدافع عن عذاباتها، الحامل لهمومها، المتاصر لقاضاياها ، والحصن الذى يقيها الهجمات التترية، التى تحاول هدم القيم،واقتلاع المبادىء،من جذورها، دون وازع من رحمة أو ضمير وأنظر اليه يقول:

المؤمنون على عناية	ـة ربهم يتوكلون
لا خوفَ يفزعهم ولا	هم فى الحوادثِ يحزنون
لو مر أضعفهم على	فرعون يجتز الرؤوسا
لأراك فى الافصاح ها	روناً وفى الإيمان موسى

* * *

أنى رأيتُ الخوف فى الـ	ـدنيا عدواً للعملْ
هو مطفىءٌ نور الرجا	ء وسالبٌ كنز الأملْ
يرمى الارادة بالتـ	ـزلِ والعزيمة بالخورْ
ومن احتواهُ الخوفُ لا	يجني من الروضِ الثمرْ

* * *

المؤمن الوثاب تعظـ	ـصمه من الهول السكينةْ
والخائف الهياب يغرق وهو	فى ظل السفينةْ
تلقاه عند شبابه	هرمًا قد انحطت هواهُ
وتعثرت قدمها قبل	الخطو وارتعشت يداهُ
فى السلم قبل الحرب مسـ	ـلوب الشجاعة حائرٌ

الصبر عنه نافز   والـلـب منه طائرٌ

* * *

أعداؤكم يخشون سيـ   ـف يقينكم قبل السيوفْ

ومرامهم أن تسرعوا   بالخوف من قبل الحتوفُ

حتى تروا نظراتِهم   مثل الخناجرِ فى الصدورْ

وهناك يقتطفونكم   من أرضكم قطف الزهورْ

* * *

الحقد والكذب الصرا   ح وكل مكرٍ أو دهاءْ

واليأس والجبن المذ   ل وكل غشٍ والتواءْ

تلك الرذائل فى شعو   ب الأرضِ أبواب الفناءْ

لولا المخاوف ما سمعـ   ـنا باسمِها تحت السماءْ

* * *

الشرك يصنع من خيوط   الخوف أشراك البلاءْ

لولاه لم نسمع بكفـ   ـرٍ أو نفاقٍ أو رياءْ

المؤمنون لهم من المولى   أمان الأولياءْ

بلغوا الكمالَ فهم عن الـ   ـدنيا العريضةِ أغنياءْ

* * *

ثقةُ الكريم بنفسِه   تعلوا به فوق الزمنْ

والحزن سمٌّ قاتل   لا تشربوا سمَّ الحزنْ

الموت والحرية الشمـ   ـاء والشرف المسكينْ

هى خيرُ ما نحيا به   وهى الغنى للمؤمنين

أما المفضضُ والمذهـ   ـبُ والمفوف والنضيدْ

فلقد تركناها لعباد الحِطام وللعبيدْ

* * *

كان الدكتور محمد اقبال الذى ولد فى سنة ١٢٩٧ هـ من أسرة «برهمية » الأصل ، اعتنقت الاسلام منذ ثلاثة قرون ، وهاجرت من «كشمير» الى «البنجاب» نموذجاً يحتذى به للمسلمين فى كل زمان ومكان، ولما لا وهو الذى درس الفلسفة فى «لاهور» على يد السير «توماس ارنولد»، ثم سافر الى كمبردج بانجلترا ، ثم «ميونيخ» بألمانيا ، لينل درجة الدكتوراة ، ورغم ذلك تمسك بدينه، ودافع عنه ، وجاهد فى سبيله ، مظهرا بعقلانية، وموضوعية، مزاياه.

وقد كافح اقبال طويلا ضد الاستعمار فى كل مكان، ورفض أن يطلب الاستقلال للهند فقط وتحويل الدعوة الانسانية الى مجرد نداء اقليمى ضيق وعلت صرخته حتى بلغت مشارق الأرض ومغاربها بتحطيم أغلال الاستعمار الانجليزى، ليبقى الاسلام، ويبقى المسلمون فى اطارهم الدينى.

وقد كان اقبال رغم انفتاحه على الغرب من خلال دراسته ورحلاته، واحتكاكه بثقافات أخرى غير الثقافة الاسلامية، الا أنه كان ينزع الى الزهد والتصوف ولكن على طريقته الخاصة، التى تفرد بها -فى رأينا- دون سائر من نزعوا الى حياة الصوفية والزهد.

تعم اننا نرى ان اقبال كان شاعرا صوفيا روحانيا فى طليعة من تخصصوا فى «المحبة» و«العشق الآلهى» ، بل ان ما نظمه اقبال من شعر دينى وربانى ، يندرج تحت لواء «الشعر الصوفى».

ودليلنا على ان اقبال الذى قال : «كل كلام قدسى المنبع فهو ابدا يتجه الى العلا شاعر صوفى رفيع المستوى، بلغ فى هذا المجال منتهي المنتهى ما جاء فى كتابه «ولله المشرق والمغرب» الذى قسمه أربعة أبواب، وأورد فى الباب الثالث شعراً صوفيا ممزوجا بفلسفة الحياه، واختار له عنوان «الخمر الباقية» مستخدما «الخمر» كرمز صوفى.

ولا يقف الأمر عند هذ الحد حيث يمكننا أن نرى بوضوح نزوع اقبال الى التصوف، فى دواوين شعره التي نظمها باللغتين الأردية والفارسية» وخاصة ديوانه «أسرار الذاتية ورموز الذاتية» وباقى منظوماته التى ضمنها مناح كثيرة من فلسفته وأفكاره .

وقد حاول البعض أن ينسب الى اقبال -زورا وبهتانا - كلاما فيه بعض النقد للصوفية ، ويحاولون أن يربطوا بين ما جاء فى كتابه «جناح جبريل» من انكاره لبعض البدع كالاتجار بالأضرحة، ومقابر الأولياء، وبعض التجاوزات الخاصة بالموالد، والصوفية ككل.

وسوف ندعم كلامنا هنا بحديث طويل جرى مع اقبال حول الصوفية ونشر باللغة الأردية بمجلة «الطريق» الباكستانية فى شهر اغسطس ١٣٣٥ هـ.

والجدير بالذكر هنا ان اقبال دافع باستماته عن الصوفية، وعدد مزاياها، وأسهب فى الحديث عما قدمته من أجل الخدمات للاسلام، واظهارهم محاسن الدين المحمدى.

وسوف أنقل هنا نص الحديث الذى جرت عملية ترجمته ونشر باللغة العربية ضمن بحث قيم ورد فى كتاب «الأعلام الخمسة للشعر الاسلامى» للعالمين الجليلين «محمد حسن الأعظمى»، و«الصاوى على شعلان، وحققه العالم الجليل الدكتور مصطفى غالب.

س: ماذا أفاد الاسلام من المتصوفة؟

ج: لقد قدم المتصوفة فى الهند أجل الخدمات الى الاسلام، وأظهروا محاسن الدين المحمدى، لا بالسيف ولا الحرب، بل بحسن سياستهم ومكارم أخلاقهم، وكان من أثر ذلك أن أسلم على أيديهم ستون مليونا من جملة المسلمين فى الهند، وهم سبعون مليونا (فى عام ١٩١٤) وكل المزايا الانسانية العالية التى تجلت فى الهند كانت بفضل تعليمهم ونشاطهم، فهم الذين علموا الانسان كيف يكون انسانا أولا، ثم علموه كيف يكون مسلما بعد ذلك.

س: هل أفادوا السياسة الاسلامية في الهند؟

وهل كان لهؤلاء المتصوفة أثر في سياسة الهند الاسلامية؟

ج: لم يكن من عملهم التدخل فى مشكلات السياسة، لأن رسالتهم تتعلق بتزكية النفس، واصلاح الباطن، وتهذيب النفس الأمارة، ولكنهم لم يتخلفوا عن أداء واجبهم حين انحرف بعض السلاطين، فقد قاموا بنصحهم وتوجيههم الى الطريق الأقوم بدون تردد ولا خوف.

س : ما هى تعليم التصوف من وجهة الشؤون الدنيوية؟

ج : فى نظرهم كما هو الحق، أن يحقق النجاح والتقدم للدين والدنيا فى قوت واحد، فالاسلام لا يسمح بالرهبانية والعزلة، واهمال الأهل والأولاد، والانقطاع للخلوة فى الصحارى والغابات.

(كيف تبنى مسجدا للمسلمين ان تركت الأرض للمستعمرين)

والتصوف الاسلامى يرى ان الذي يعيش لنفسه فقط، فهو ينبوع جاف، لا ماء فيه ولا خير منه، وقد يسمح بالخلوة والتفرغ للعبادة والتوجه لله، لذوى المواهب الخاصة، ،من لهم قدم راسخة فى الروحانية وهم أقل من القليل، وعلى أية حال فإن ترك الدنيا والعزوف عن نعم الله فيها، تعد مخالفة للقانون الالهى، لأن الفطرة تقتضى نمو العمران وامتداد النسل البشرى.

س: منذ متى بدأت مواسم هذه الذكريات التى تطلق عليها كلمة الموالد فى البلاد العربية أو العرس فى شبه القارة الهندية الباكستانية؟

ج : نظرا الى أن الهنادك كانوا يحتفلون بأيام دينية فى مظاهر ومهرجانات تعودوها، فقد نقلت بعض هذه المظاهر فى شكل اسلامي ليأنس به الهنادك، الذين اعتنقوا الاسلام حديثا.

س : ما هى أهداف هذه الموالد؟

ج : هى ذكريات لمن تقام من أجلهم لابراز واظهار مزاياهم، وآثارهم الدينية والعلمية، ولهذا ينبغى استغلال هذه الذكريات لايضاح تاريخهم، والكشف عن

أمجادهم وأعمالهم، ولكن من المؤسف بأن بعض الناس لا يفطنون الى هذه المقاصد السامية فيجعلونها تسلية ويتخذونها لهوا ولعبا، فهى عبارة من الأسواق والملاهى والمناظر، وعرض السلع والمنتجات.

س : ولكن ما الذي يفيدنا من طائفة المتصوفة فى هذا العصر المتيمز بالحركة والجد والانتاج والعمل الدائب؟

ج : ان هؤلاء المتصوفة لهم حلقات رحبية، وأتباع عديدون، وهم يستطيعون ان يوجهوا أتباعهم ومريديهم نحو الحياة الفاضلة والمشاركة فى كل الميادين العملية والمفيدة للمجتمع، وكثيرا ما كانوا مصدرا للنهضة واليقظة للأمة (نذكر مثلاً: فى الحروب الصليبية بمصر، كيف قاد الامام أحمد البدوى مريديه، بعد أن دربهم ونظمهم، وشكل منهم جيشا يجمع بين الايمان والعمل، واتجه بهم الى معسكرات الأسرى التى تضم المئات من جنود الشعب المصري فحررهم وفك أسرهم، وشارك بهم وببقية مريديه فى الموقعة، حتى جاء نصر الله، وعاد الى صومعته معلما وعابدا، وننقل الى عصرنا القريب فنذكر الامام السنوسى الأكبر، وكيف وقف بجيوشه ضد غزاة الشمال الافريقى نحو عشرين عاما، حتى اذا مات خلفه الامام البطل الشيخ عمر المختار، ونذكر الزعيم الصوفى الأمير عبدالكريم الخطابى، وهذه مواقفه الجليلة ضد جيوش الاحتلال ، لا تزال ترن فى أذهان الناس (أنظر للتفصيل مجلة الشبان المسلمين القاهرية).

س : ما قولك فى كرامات الأولياء؟

ج : أعتقد فى كرامات الأولياء، فإن النفوس التى وهبها الله قلوبا وأدمغة خالصة، ممن بلغوا الكمال فى تزكية النفس، وعلى تعبير البعض بأنهم يستطيعون أن يرجعوا السهم الى القوس بعد انطلاقه، والماء الى الينبوع بعد فيضانه.

س : أترى من المستحسن زيارة القبور ، أو ترى غير ذلك؟

ج : اذا كان هدف الزيارة طلب الحاجات من اصحابها. كما تطلب من الله عز وجل، فانى اخالف هذا كل المخالفة، واعتبر ذلك اثما وجرما كبيرا فاذا كان الهدف هو العبرة

وتذكر الموت، ،الدعاء لهم، فلا بأس بذلك، بل هو مطلوب، وأري فوق ذلك أن فى زيارة هذا المواطن مما يتحقق به تزكية الباطن.

س : هل نحتاج الى مرشدين أو لا؟

ج : الانسان يحتاج الى مرشد الذي يوجهه الى الطريق الأقوم، وصاحب القلب النقى يستفيد من هداية المرشد، ممن لهم روح كبيرة، وفيهم حرارة وألم، وكل مريد ترتفع أخالقه وتحسن سيرته وسلوكه، من صحبة المرشدين شريطة أن لا يكونوا تجارا ولا محترفين.

س: لم نجد فى الوقت الحاضر أمثال أولئك المرشدين؟

ج : مرد هذا الى أن مجتمعنا الحاضر قد تعري من مزايا تلك الأزمنة، وأذواقها وعلى سبيل الايضاح نقول: إننا نرى العلماء والمخترعين والعباقرة تمتلىء بهم أوربا وفيما وراء البحار، بينما لا نجد لدينا الا القليل النادر ، وسبب هذا أن المجتمع هناك يقدر الجهود العلمية والفنية ويفسح الجمال أمام ذوى الخبرة ليمارسوا استخدام قدراتهم فيما يرفع من شؤن أممهم بالتشجيع والتقدير ، بينما لا يجد الموهوبون هنا غير اطفاء نور الموهبة، وتعويق سيرهم عدا الحالات، فمثلا بوذا الذى ولد فى بيت ملك، وشاهد المجتمع من حلوه نشوان بالرفاهية والنعمة، أو مبتلي بالفاقة والعدم، فأحس بذلك وظن أن كل آلام الانسانية، هي آلامه، فاضطربت روحه وترك الملك والدولة، ووقف حياته للاصلاح، والمثل الأعلي في حياة العرب أنهم كانوا أبدا في حروب، ووأد بنات، وكل عيوب الدنيا كانت لديهم فجاء شخص من رب العزة رسولا الذي هو أكبر نموذج ومثال للرحمة، وكان العرب يشعلون الحرب لأسباب تافهة وتستمر الحرب إلي عشرات السنين، وبدل آله واحد كانوا يعبدون الهة عديدة من صنع أيديهم، ويقدسون أشخاصا ويفتخرون بالشراب والمجون، ولايعرفون للعدل والفضل قانونا، ينظم معيشتهم لأجل هذا بعث النبي الذي كان رحمة للعالمين فجعل هذه المنطقة العربية منطقة يعتز بها مسلمو العالم أجمع، ويبذلون أرواحهم فداء لمكة المكرمة والمدينة المنورة.

هكذا كان العالم الروحي المسلم الفيلسوف محمد إقبال الشاعر الصوفي الذي عبر عن نزعته إلي التصوف بقصائد رائعة لم يزل يشدو وبها العالم الإسلامي، ويتغني بها اولئك الذين قد تعلقوا بالحب الالهي، وهاموا به، وبلغوا فيه منتهي المنتهي.

وسوف نقدم هنا أعظم أشعار اقبال، وهما قصيدتان شهيرتان احداهما بعنوان «شكوي» والأخري «جواب شكوى». وفي القصيدة الأولي يصور اشجانه والآمه ويتضرع اقبال إلي الله يسأله عمن سبب ما آل اليه المسلمون من ضعف وفرقة وتآخر بعدما بلغوا في عصور مضت أوج عظمتهم وتقدمهم.

وفي القصيدة الثانية يتخيل اقبال صوتا سماويا يدوي بصيحة الحق جوابا لهذه الشكوي:

«شكوى»:

شكواي أم نجواي في هذا الدجي ... ونجومُ ليلي حسدي أم عودي

أمسيتُ في الماضي أعيشُ كأنما ... قطعَ الزمانُ طريق أمسي عن غدي

والطير صادحةٌ علي أفنانها ... تبكي الربي بأنينها المتجدد

قد طالَ تسهيدي وطالَ نشيدُها ... ومدامعي كالطلِ في الغصنِ الندي

فالي متي صمتي كأني زهرةٌ ... خرساء لم ترزقْ براعةَ منشد

* * *

قيثارتي ملئت بأنات الجوي ... لابد للمكبوت من فيضانِ

صعدت إلي شفتي بلابل مهجتي ... ليبينَ عنها منطقي ولساني

أن ماتعديت القناعةَ والرضا ... لكنما هي قصة الأشجانِ

أشكو وفي فمي التراب وانما ... أشكو مصاب الدينِ للديانِ

يشكو لك اللهم قلبٌ لم يعشْ ... الا لحمد علاكَ في الأكوانِ

* * *

قد كان هذا الكون قبل وجودنا روضا وأزهارا بغير شميمِ

والورد في الأكمام مجهول الشذي لا يرتجي وردٌ بغير نسيمِ

بل كانت الأيام قبل وجودنا ليلاً لظالمها وللمظلومِ

لما أطل محمدٌ زكّتْ الربي واخضر في البستان كل هشمِ

وأذاعت الفردوس مكنون الذي فإذا الوري في نضرةٍ ونعيمِ

* * *

مَنْ قام يهتف باسم ذاتك قبلنا من كان يدعو الواحدَ القهارا

عبدوا تماثيل الصخورِ وقدسوا من دونك الأحجارَ والأشجارا

عبدوا الكواكبَ والنجومَ جهالةً لم يبلغوا من هديها أنوارا

هل أعلن التوحيد داعٍ قبلنا وهدي الشعوب إليك والأنظارا

كنا نقدم للسيوفِ صدورَنَا لم نخش يوما غاشماً جبارا

* * *

قد كان في اليونان فلسفةٌ وفي الـ ـروماْن مدرسة وكان الملكُ في ساسانِ

لم تغن عنهم قوةٌ أو ثروة في المالِ أو في العالم والعرفانِ

وبكل أرضٍ سامري ماكرٌ يكفي اليهودَ مؤونةُ الشيطانِ

والحكمة الأولي جرت وثنيةً في الصينِ أو في الهند أو تورانِ

نحن الذين بنورِ وحيكَ أوضحوا نهجَ الهدي ومعالمَ الايمانِ

* * *

مَنْ ذا الذي رفع السيوفَ ليرفعَ اسمـ ـكَ فوق هامات النجوم منارا

كنا جبالا في الجبال وربما سرنا علي موج البحار بحارا

بمعابد الأفرنج كان أذاننُا قبل الكتائب يفتح الأمصارا

لم تنس أفريقيا ولا صحراؤها سجداتِنا والأرض تقذف نارا

وكـــأن ظلَّ الســـيفِ ظلّ حـــديقـــةٍ   خـــضـــــراء تنبت حـــولنـا الأزهارا

* * *

لم تخش طاغـــوتـا يحـــاربنا ولـو   نـصب المنايا حـــولنا أســـــوارا

ندعـــو جـــهـــارا لا اله ســـوى الذي   صنـع الوجـــودَ وقـــدر الأقـــدارا

ورؤوسـنا يـارب فـــــوق أكـــــفنَـا   نرجـــو ثـوابك مـــغنمّـــا وجـــوارا

كـنـــا نـــرى الأصـــنـــام مـــن ذهـــبٍ   فنهـــدمهـــا ونهدم فـوقَـــهـا الكـفـارا

لو كـــان غـــيـــر المسلمين لحـــازَها   كـنـزاً وصـــــــاغ الحـلـي والديـنـارا

* * *

كم زلزل الصـــخـــر الأشم فـمـــا وهى   مـن بـــأسـنـا عــــــــــزم ولا ايمــانُ

لو أن أســـــاد العـــريـن تفــــزعت   لم يـلقْ غـــــيـــــر ثبـــاتنـا الميـــدانُ

وكـــأن نـيـــرانَ المدافعِ فـي صـــدور   ر المؤمـنين الروح والـريـحـــــــانُ

توحـــــيـــدك الأعلي جـــعلنا نقـــشـــه   نوراً تـضئ بصـــبـــحـــه الأزمـــانُ

فـغـدت صـــدور المؤمنين مـصـــاحـفًـا   في الـكون مـــسطوراً بهـــا الـقـــرآنُ

* * *

مَنْ غـــيـــرنا هـدم التـــمـــاثيل الـتي   كـانـت تقـدسـهـا جـهـالات الورى؟

حـــتي هوت صـــور المعـــابد ســـجـــدا   لجـــلال مـن خلق الـوجـــود صـــورا

ومَنْ الأهلـي حـمـلوا بعـــزم أكـــفـــهم   باب المدينة يوم غـــزوة خـــيـــبـــرا؟

أمن رمـي نارَ المجـــوسِ فـــأطـفـــئت   وأبـانَ وجَـــــه الحق أبلـج نيـــــرا؟

ومن الذي بـذلَ الحـــيـــاةَ رخـــيـــصـــةً   ورأى رضـــاك أعـز شيء فـاشـتـــرى؟

* * *

نحن الذين استيقظت بأذانهم ... دنيا الخليقة من تهاويل الكري

نحن الذي إذا دعوا لصلاتهم ... والحرب تسقي الأرض جاما أحمرا

جعلوا الوجوه إلي الحجاز وكبروا ... في مسمع الروح الأمين فكبرا

محمود مثل أياز[1] قام كلاهما ... لك بالخشوع مصلياً مستغفرا

العبد والمولي علي قدم التقي ... سجداً لوجهك خاشعين علي الثري

* * *

بلغتْ نهايةَ كل أرض خيلُنَا ... وكأن أبحرها رمال البيدِ

في محفل الأكوان كان هلالُنا ... بالنصر أوضحَ من هلالِ العيدِ

في كل موقعةٍ رفعنا رايةً ... للمجدِ تعلن آيةَ التوحيدِ

أم البرايا لم تكن من قبلنا ... إلا عبيداً في أسارِ عبيدِ

بلغت بنا الأجيال حرياتها ... من بعد أصفادٍ وذلِ قيودِ

* * *

رحماك رب هل بغير جباهنا ... عرف السجودَ ببيتُك المعمورِ؟

كانت شغاف قلوبنا لك مصحفًا ... يحوي جلالَ كتابَك المسطورِ

إنْ لم يكن هذا وفاء صادقاً ... فالخلق في الدنيا بغير شعورِ

ملأ الشعوب جناتها وعصاتها ... من ملحدعاتٍ ومن مغرورِ

فاذا السحاب جري سقاهم غيثةً ... واختصنا بصواعقِ التدميرِ

* * *

قد هبت الأصنامُ من بعد البلي ... واستيقظت من قبل نفخِ الصورِ

---

(١) السلطان محمود الغزنوي واياز خادمه.

والكعبة العليا تواري أهلَها فكأنهم موتى لغير نشورِ

وقوافلُ الصحراء ضل حداتُها وغدتْ منازلُها ظلالَ قبورِ

أنا ماحسدت الكافرينَ وقد غدوا في أنعمٍ ومواكبٍ وقصورِ

بل محنتي ألا أري في أمتي عملاً تقدمُه صداق الحورِ

* * *

لك في البريةِ حكمةٌ ومشيئةٌ أعيتْ مذاهبها أولي الألباب

إنْ شئت أجريت الصحاري أنهراً أو شئت فالأنهارُ موجِ سرابِ

ماذا دهي الاسلامُ في أبنائهِ حتي أنطووا في محنة وعذابِ

فثراؤُهم فقرٌ ودولةُ مجدِهِم في الأرضِ نهبُ ثعالبٍ وذئابِ

عاقبتنا عدلاً فهب لعدونا عن ذنبه في الدهرِ يومَ عقابِ

* * *

عاشوا بثروتنا وعشنا دونهم للموتِ بين الذلِ والأملاقِ

الدينُ يحيا في سعادة أهله والكأسُ لاتبقي بغير الساقي

أين الذين بنار حبك أرسلوا الـ ـأنوارَ بين محافلِ العشاقِ

سكبوا الليالي في أنينِ دموعِهم وتوضأوا بمدامعِ الأشواقِ

والشمس كانت من ضياء وجوهِهم تهدي الصباحَ طلائعُ الأشواقِ

* * *

كيف انطوت أيامهم وهم الألي نشروا الهدي وعلوا مكان الفرقدِ

هجروا الديارَ فأين أزمع ركبهم من يهتدي للقومِ أو من يقتدي

ياقلبُ حسبك لن تلمْ بطيفهم الا علي مصباحِ وجهِ محمدِ

فـــازوا من الـدنيـــا بمجـــد خـــالدٍ ولهـم خلـودُ الفـــوزِ يـومَ الموعــــدِ
يارب ألـهـــمنا الرشـــادَ فـــمـــا لـنا في الكـونِ غـيــرك من ولـيٍ مـرشـدِ

* * *

مـــازال قــيس والغـرام كـعـــهـدهِ وربوع لـيلي فـي ربيعِ جـــمـــالِـهـــا
وهضـــاب نجـدٍ في مــراعـيــهـا المهـــا وظبـــاؤها الخـفـرات مـلءْ جبـــالِهـــا
والعـــشـق فـيـــاضٌ وأمـــة أحـــمـــد يتـــحـــفـز التـــاريخُ لا ســـتـقـبـــالِهـــا
لو حـــاولت فـــوق الســـمـــاء مكـانة رفت علي شـمس الضحي بهـلالِهـا
مـــابالـهـــا تلقـي الجـــدود عـــوائرا وتصــــدهـا الأيامُ عـن آمـــالِهـــا

* * *

هجـــر الحـبـيب رمي الأحـبـة بالنوي وأصــــابهم بتــــصـــــرمِ الآمــــالِ
لم يـبقْ في الأرواح غـــيـــر بـقـــيـــةٍ رُحـــمـــاكَ يامـــرآةَ كلِ جـــمـــالِ
لو قـــد مللنا العـــشقَ كـــان سَـبِـيلُنَا أن نســــتكينَ إلـي هوي وضـــلالِ
أو نصـنع الأصنامَ ثـم نبـيـــعَـــهَـــا حــــاشـــا المـوحـــد أن يُذَلَّ لمـالِ
أيام سـليــمـــان بنـا مـــوصـــولةٌ وتــقـــي أدريــس فـــي أذانِ بـــلالِ

* * *

يا طـيب عـــهـدٍ كنت فـيــه منارنا فــبــعــــثـت نورَ الحقِ مـن فـــارانِ
وأســـرت فـيــه العـاشـقين بلمحـةٍ وسـقـيـتـهـم راحـا بغـيــر دنانِ
أحــرقت فـيــه قلوبَهم بـتـوقـد الإ يمـان لابتـلـهـبِ الـنـيـــــرانِ
لم تـبقْ نـحن ولا القـلوب كـــأنهـــا لم تـتـحـظْ من نارِ الهـوي بدخـــانِ
ان لم يـنر وجـــه الحـبـيب بوصـله فـــمـكان حـــزن الـقلـبِ كلَ مـكانِ

* * *

يافـــرحَـــة الأيـام حين نـري بهـــا   روضَ التـجـلي وارفَ الأغـــصـــان

ويعـــود محـفـلنا بحسنك مسـفـراً   كـالـصـبحِ في اشـراقـــه الفـينان

قـــد هـاج حـــزني أن أري أعـــداءَنا   بـين الـطـلا والـظـل والألحـــــان

ونعـــالج الأنفـــاسَ نحن ونصطـلي   في الفـقـرِ حين القـوم في بسـتـان

أشـــرقْ بنورِكَ وأبعث البـرق القـديـ   ـــم بومـضـــة لفـــراشك الظمـــآن

* * *

أشـــواقنا نـحـــو الحـجـــاز تطلـعتْ   كـــحنيـن مـــغـــتـرِب إلي الأوطان

إن الطيـورَ وإنْ قـصَـصتَ جـناحَـهـا   تســـمـــو بفـطرتِهـا إلي الـطيـران

قـيـثـــارتي مكبـوتةٌ ونـشـيـدُهَا   قـد ملَ من صـمـتٍ ومن كـتـمـان

واللحنُ في الأوتارِ يـرجـو عـــازفًـا   ليـــبـــوحَ من أســـرارِه بمعـــان

والطـورُ يرتقبُ التـجلي صـارخًـا   بهـوي المشـوقِ ولهـفـةِ الحيـران

أكـبـادُنـا احـتـرقت بـأنات الجـوي   ودمـاؤنـا نهـــر الـدمـوعِ القـاني

والعطرُ فـاض من الخـمـائلِ والربي   وكـــأنه شكوي بغـيـــرِ لســـان

أو ليـس من هول القـــيـــامـة أن يـكو   ن الزهـر نمامًـــا علي البـســتـــان

النـمل لايـخـــشي سليــمــانا إذا   حـــرست قـــراه عـنايةُ الرحـــمن

أرشـد براهمـة الهنود ليـرفـعـوا الإ   ســـلام فـــوق هيـــاكـل الأوثان

* * *

مـا بال أغـــصـان الصنوبـر قـد نأت   عنمـــا قـــمـــاريهـــا بكل مكان

وتعـرت الأشـجـار من حلـلِ الربي   وطيـــورُها فـــرت إلي الوديان

يـارب الا بـلبــــــلاً لـم ينـتـظرْ   وحَي الربيع ولاصـــبـا نيـــســان

ألحـــانه بحـــر جـري مـتـلاطمًـا   فـكأنه الحـــاكي عن الطوفـــان

ياليت قــومي يســمــعــون شكـايةً		هي في ضـمـيــري صـرخُـة الوجـدانِ

* * *

ان الجــواهـر حــيــرت مــرآة هــ		ـذا القـلـب فـهـو علي شـفـا بركـانِ

أســمـعــهـمـوا يارب مـا ألـهـمـتني		وأعــــدْ الـيـــــهمْ يـقـظةَ الإيمـانِ

وأذقـــهم الخــمــرَ القــديمة إنهـــا		عينُ الـيـــقـين وكـــوثُر الرضـــوانِ

أنا أعـــجــمـي الدن لكـن خـمــرتي		صنع الحــجــاز وكــرمـهـا الـفـينانِ

ان كــــان لي نـغـم الهـنود ولحـنهـم		لكـن هذا الـصــــوت من عـــــدنانِ

* * *

«جواب شكوي»:

كــــلامُ الـروح للأرواح يســـــري		وتـدركـــــــه الـقـلـوبُ بـلا عـنـاءِ

هتــــــفـت بـه فـطـارَ بـلا جـنـاحِ		وشقَ أنـيُنـه صـــدرَ الفـــضـــاءِ

ومـــــــعـــــــدنـه ترابـي ولـكـنْ		جــرت في لـفظه لـغــةَ الســمـــاءِ

لقــد فـاضـت دمــوع الـعـشقِ مـني		حـــديثًــــا كـــان علـوي النـداءِ

فـــحلق فـي ربي الأفــلاكِ حـــتي		أهـاجَ الـعـــــــالمَ الأعلـي بـكـائِي

* * *

تحـــاورت النجُـــوم وقلن صـــوت		بقــرب الـعــرشِ مـوصـولَ الدعـاءِ

وجـــاويت المجـــرة علي طيـــفًـــا		ســـري بـين الكواكـبِ في خـــفـــاءِ

وقـــال الـبـــدرُ هـذا قلبٌ شـــاكٍ		يـواصل شـــــدوه عـنـد المســـاءِ

ولـم يعــرفْ ســوي رضــوان صــوتي		ومـــا أحـــــراه عنـدي بالـوفـــاءِ

ألـم أكُ قـــبـل في جنـاتِ عـــدنٍ		فــأخــرجني إلـي حين قــضـــائِي

* * *

وقِيلَ هو ابنُ آدمَ في غرور ... تجاوز قدرُه دون ارعواءِ
لقد سجدتْ ملائكةٌ كرام ... لهذا الخلق من طينٍ وماءِ
يظن العلمُ في كيفٍ وكمٍ ... وسرُّ العجزِ عنه في انطواءِ
وملء كؤوسِه دمعٌ وشكوي ... وفي أنغامِه صوتُ الرجاء
فيا هذا لقد أبلغت شيئًا ... وان أكثرت فيه من المراءِ

* * *

عطايانا سحائب مرسلات ... ولكن ماوجدنا السائلينَا
وكل طريقنا نورٌ ونورٌ ... ولكن ما رأينا السالكينَا
ولم نجدْ الجواهرَ قابلات ... ضياء الوحي والنور المبينَا
وكان تراب آدم غير هذا ... وان يكُ أصله ماء وطينَا
ولو صدقوا وما في الأرض نهر ... لأجرينا السماء لهم عيونَا

* * *

وأخضعنا لملكهم الثريا ... وشيدنا النجومَ لهم حصونا
ولكن ألحدوا في خير دينٍ ... بني في الشمسِ ملك الأولينَا
تراثُ محمد قد أهملوه ... فعاشوا في الخلائق مهملينَا
تولي هادمو الأصنام قدما ... فعاد لهِا أولئك يصنعونا
أباهم كان إبراهيم لكنْ ... أري أمثال آزرَ في البنينَا

* * *

وفي أسلافكم كانت مزايا ... بكل فمٍ لذكراها نشيدُ
تضوع شقائق الصحراء عطرًا ... برياهًا وتبتسم الورودُ...

فهل بقيت محاسنهم لديكم فيجعلُ في دلالِكُم الصدودُ
لقد هاموا بخالقهم فناء فلم يكتب لغيرهم الخلودُ
وكوثر أحمد منكم قريبُ ولكن شوقكم عنه بعيدُ

* * *

وكم لاحَ الصباحُ سناً وبشري وأذنت القماري والطيورُ
وكبرَتْ الخمائل في رباها مصلية فجاوبها الغديرُ
ونوم صباحكم أبداً ثقيلُ كأنَ الصبحَ لم يدركَه نورُ
وأضحي الصوم في رمضان قيداً فليس لكم به عزم صبورُ
تمدن عصُركم جمع المزايا وليس بغائبِ الا الضمير

* * *

لقد ذهب الوفُاء فلا وفاءَ وكيف ينالُ عهدي الظالمينَا
إذا الايمانُ ضاعَ فلا أمانَ ولا دنيا لمن لم يحيي دينَا
ومن رضي الحياةَ بغير دين فقد جعلَ الفناءَ لها قرينَا
وفي التوحيد للهممِ اتحادٌ ولن تبنوا العلا متفرقينَا
تساندت الكواكبُ فاستقرتْ ولولا الجاذبية ما بقينَ

* * *

غدوتم في الديارِ بلا ديارَ وأنتم كالطيورِ بلا وكورِ
وكل صواعق الدنيا سهام لبيد ركم وأنتم في غرورِ
أهذا الفقر في علمٍ ومالِ وأنتم في القطيعةِ والنفورِ
وبيع مقابر الأجدادِ أضحي لدي الأحفادِ مدعاة الظهورِ

سيعجب تاجرو الأصنام قدمًا إذا سمعوا بتجار القبورِ

* * *

مَنْ المتقدمون إلي المعالي علي نهجِ الهدايةِ والصوابِ
ومَنْ جبهاتُهم أنوارُ بيتي وفي أخلاقِهمْ يُتْلَي كتابي
أما كانوا جدودُكُمُ الأوالي بناةَ المجدِ والفنِ العجابِ
وليسَ لكم من الماضي تراثٌ سوي شكوي اللغوب والاكتئابِ
ومن يكُ يومه في العيش يأسًا فما غده سوي يومِ العذابِ

* * *

أتشكو أن تري الأقوامَ فازوا بمجدٍ لايراه النائمونَا
مشوا بهدي أوائلكُمْ وجدوا وضيعتم تراثَ الأولينَا
أيحرَمُ عاملٌ ورد المعالي ويسعدُ بالرقي الخاملونَا
ألَيسَ من العدالةِ أنَ أرضي يكون حصادُها للزارعينَا
تجلي النورٌ فوق الطورِ باق فهل بقي الكليمُ بطورِ سينا؟

* * *

ألم يبعث لأمتكم نبي يوحدكم علي نهج الوئامِ
ومصحفكم وقبلتكم جميعًا منار للأخوة والسلامِ
وفوق الكل رحمنٌ رحيمُ الهٌ واحدٌ ربُ الأنامِ
فما لنهار الفتكم تولي وأمسيتم حياري في الظلامَ
وحسن اللؤلؤُ المنكونُ رهنٌ بصوغِ العقدِ في حسنِ النظامَ

* * *

وكـيـف تغـيـرتْ بكُم الليـالي ... وكـيـف تـفـرقتْ بكمُ الأمـانِي

تركـتم دينَ أحـمـد ثم عُـدتمْ ... ضـحـايا للـهوي أو لـلهـوانِ

رقي الـشعب قـد أضـحي لديكم ... تقـرره صـلاحـيـةُ الزمـان

وكـيف تـقـاسُ أوهامٌ ولـغـوٌ ... بحكمـة منزِل السـبع المثـانِيَ

أري نـاراً قـد انقلبت رمـاداً ... سـوي ظلِ مـريضٍ من دخـانِ

* * *

أري الفـقـراء عـبـاداً تقـاة ... قـيـامـا في المسـاجـدِ راكـعـينَا

هم الأبرار في صـوم وفطرٍ ... وبالأسـحـارِهم يسـتـغـفـرونَا

وليس لكم سوي الفـقـراءِ سـترٌ ... يواري عن عـيـوبكم العـيـونَا

أضلـت أغنيـاءكم الملاهي ... فـهم في ريبِـهـم يتـرددونَا

وأهلُ الفـقـرِ مـازالوا كنوزاً ... لـديـن الـلـهِ رب العـالمين

* * *

أري التـفكَيـر أدركُـه خـمـولٌ ... ولم تـبقْ العـزائمُ في اشـتـعـالِ

وأصـبح وعظُكم من غـيـر سـحـرٍ ... ولانـورٍ يُـطِـلُ من المـقـالِ

وعـند الـناسِ فلسـفـةٌ وفكـر ... ولـكـن أين تـلـقـين (الغـزالـي)

وجـلـجـلـة الآذان بـكـلِ أرضٍ ... ولـكـن أين صـوت من بـلالِ

مـنـائـركـم عـلـت فـي كـل حـي ... ومـسـجـدكم من العـبـاد خـالِي

* * *

فـأيـن أئمـة وجنود صـدقٍ ... تهـاب شـبـاةَ عـزمِـهـم الحـرابُ

إذا صنعـوا فـصنعـهم المعـالي ... وإن قـالوا فـقـولهم الصـوابُ

مرادهم الاله فلا رياءَ ... ونهجهم اليقين فلا ارتيابُ

لأمتهم وللأوطان عاشوا ... فليس لم إلي الدنيا طلاب

كمثل الكأس تبصرها دهاقا ... وليس لأجلِها صُنِعَ الشرابُ

* * *

جهاد المؤمنين لهم حياةٌ ... ألا أن الحياةَ هي الجهادُ

عقائدهم سواعد ناطقات ... وبالأعمالِ يثبت الاعتقادُ

وخوفُ الموتِ للأحياء قبرٌ ... وخوف الله للأحرارِ زادُ

أري ميراثَهم أضحي لديكُم ... مضاعًا حيث قد ضاعَ الرشادُ

وليس لوارثٍ في الخيرِ حظٌ ... إذا لم يحفَظ الأرثَ اتحادُ

* * *

لأي مآثر القوم انتسبتم؟ ... لتكتسبوا فخار المسلمينَا

فأين مقامُ ذي النورينِ منكم ... ودولة عزة دنيا ودينًا

وفقرُ علي الأواب هلا ... ربحتُم فيه كنزَ الفاتحينَا

أقمتم في الذنوبِ وفي الخطايا ... وتغتابون حتي الصالحينَا

وهم ستروا عيوب الخلق فضلا ... وان كانوا أبر المتقينَا

* * *

أريكة قيصر وسرير كسري ... قد احتميا بملكهم العميم

وأنتم تطمحون إلي الثريا ... فلا عزم ولا قلب سليمِ

تضيعون الأخاءَ وهم أقاموا ... صروحَ أخائهم فوقَ النجومِ

طلبتم زهرةَ الدنيا وعا ... بلا زهر يضوع ولا شميمِ

وكــان لديهم الـبـسـتـان مـحـضًـا وهم أصـحــاب جنات الـنـعـيم

* * *

يعـيـد الكون قـصـتـهم حـديثًـا وينشئ مـن حـديثـهم الفـنونـا

فكـم نزحـوا عـن الأفكار شـوقًـا إلي الـتـحـليق فـوق الـعـالمينا

وبأس شـبـابكم أدمي خطـاهم فـظنـوا فـيـه بالـدين الظـنونَـا

هي المـدينـة الحـمـقـاء ألـقت بـهم حـول المذاهب حـائـرينَـا

لـقـد صـنعـت لهـم صنم الملاهـي لتـحـجـب عنهم الحـرم الأمـينَـا

* * *

لقـد سـئم الهـوي فـي البيـد قـيسٌ ومـل مـن الشـكـاية والـعـذاب

يحـاول أن يـبـاح الـعـشـق حـتي يري لـيـلاه وهـي بلاحـجـاب

يريـد سـفـور وجـه الحـسـن لما رأي وجـه وجـه الغـرام بلا نـقـاب

فـهـذا الـعـهـد أحـرق كل غـرس مـن المـاضـي وأغـلـق كـل بـاب

لقـد أفنت صـواعـقـه المغـاني وعـاثت في الجـبال وفي الـهـضـاب

* * *

هـي النـار الجـديدة لـيس يـلقـي لهـا حطـبٌ سـوي المجـد القـديم

خـذوا ايمـان إبـراهـيم تـنـبـت لكـم في الـنـار روضـات الـنـعـيم

ويذكـو من دم الـشـهـداء وردٌ سـني الـعطـر قـد سي الـنـسـيم

ويـلـمـع في سـمـاء الـكون لـونٌ من الـعناب مـخـضـوب الأديم

فـلا تفـزع إذا المـرجـان أضـحي عـقـوداً لـلبـراعـم والكـروم

* * *

فـكـم زالـت ريـاض مـن ربـاهـا وكم بـادت نخـيل فـي الـبـوادي

ولكن نخلةَ الإسلامِ تنمو ... على مرِ العواصفِ والعوادي
ومجدك في حمى الإسلام باقٍ ... بقاء الشمسِ والسبعِ الشدادِ
وأنك يوسفٌ في أي مصرٍ ... يري كنعانه كلَ البلادِ
تسير بك القوافلُ مسرعاتٍ ... بلا جرسٍ ولا ترجيع حادي

* * *

ضياؤُك مشرق في كل أرضٍ ... لأنك غير محدود المكانِ
بغت أمم التتار فأدركتها ... من الايمانِ عاقبة الأمانِ
وأصبح عابد والأصنامِ قدما ... حماةَ الحجر والركن اليمانِ
فلا تجزع فهذا العصر ليل ... وأنت النجم يشرق كل آنِ
ولاتخش العواصفَ فيه وانهضْ ... بشعلتك المضيئةِ في الزمانِ

* * *

أعد من مشرق التوحيد نوراً ... يتمُ به اتحادُ العالمينا
وأنت العطرُ في روضِ المعالي ... فكيف تعيشُ محتبساً دفينا
وأنت نسيمُه فاحملْ شذاه ... ولاتحمل غبارَ الخاملينا
وأرسل شعلةَ الإيمانِ شمسًا ... وضع من ذروة جبلاً حصينا
وكُنْ في قمةِ الطوفان موجًا ... ومزنا يحطرُ الغيثَ الهتونا

* * *

فباسم محمد شمس البرايا ... أُقيمتْ خيمة الفلكِ المنيرِ
تلألأ في الرياض وفي الصحاري ... وفوق الموجِ والسيلِ المغيرِ
ونبضُ الكونِ منه مستمدٌ ... حرارتُه على مرِ العصورِ
ومن مراكش يغزو صداه ... ربوع الصين بالصوت الجهيرِ
وما مشكاة هذا النور الا ... ضمير المسلم الحر الغيورِ

* * *

ورفع الذكر للمختار رفع ... لقدرك نحو غايات الكمالِ
فكن إنسان عين الكون وأشهدْ ... مقامك عالياً فوق المعالي
بخنجر عزمك الوثاب لاحتْ ... على الأعلام أنوار الهلالِ
نداؤك في العناصر مستجاب ... إذا دوي بصوت من بلالِ
وعقلك في الخطوب أجلَ درعٍ ... وعِشْقُكَ خير سيفٍ للنضالِ

* * *

خلافةَ هذه الأرض استقرتْ ... بمجدك وهو للدنيا سماءُ
وفي تكبيرك القدسي يبدو ... صغيراً كل ماضمَ الفضاءُ
فيا من هب للإسلام يدعو ... وأيقظَ صدق غيرته الوفاءُ
سترفع قدرَك الأقدارُ حتى ... تشاهَد أن ساعدكَ القَضاءُ
وقيل لك احتكم دنيا وأخري ... وشَأنُك والخلود كما تشاءُ

* * *

كل المنى..

أنرتَ الهـدى لـلمـهـتـديـن ولم يـكنْ

من الـنورِ فى أيديـهم عـشـر مـعـشـارى

فنلنِى بعـفـوِ منكَ أحـيى بقـربهِ

وغَشَ بيسـرِ منك فـقـرى واعـسـارى

« ذا النون المصرى »

من بين أشهر رجال الصوفية فى الإسلام أبو الفائض ثوبان بن إبراهيم ذو النون المصرى، ولد بأخميم من أعماق صعيد مصر، ويبدو من أيامه أنه كان نوبيا وان ذا النون كان عبدا ثم أعتق . وقد قيل ان ذا النون اعتاد أن يطوف بين الآثار المصرية القديمة يدرس رموزها ويحاول حلها، وقد درس أيضاً بعض علوم الطب والكيمياء والسحر، ويقال إن سعدون الصوفى المصرى كان معلمه ورائده الروحى.

وقد سافر ذو النون إلى مكة ودمشق وزار بعض النساك المقيمين الى الجنوب من أنطاكيا وفى أثناء هذه الأسفار توصل ذو النون الي التضلع فى التنسك وكبح جماح النفس.

من بين ما روى عن ذى النون أنه كان ذات مرة مبحرا مع تلامذته فى قارب بالنيل فاقترب منهم قارب آخر به رهط من المعيدين احنقت تصرفاتهم أتباع ذى النون فطلبوا إليه أن يدعو الله ضارعاً اليه إغراق أهل القارب ، لكنه اتجه الى ربه قائلاً «يارب لتنعم على هؤلاء القوم السعداء فى هذه الحياة الدنيا بعيشة مثلها هنيئة فى الحياة الأخرى»، الأمر الذى اثار دهشة أتباعه.

ثم اقترب القارب الآخر منهم وأبصر من فيه ذا النون فخروا بكيا فى توبه لله.

وعند ذلك قال ذو النون لصحبه «ان المعيشة الرغدة فى الحياة الأخرى هى ثمرة التوبة فى هذه الحياة، وها أنتم وهم الآن راضون دون حاجة إلى إنزال ضرر بأحد»، وروى أيضاً أن ذا النون كان مسافرا ذات يوم من القدس إلى مصر فالتقى بامرأة عجوز تحمل عكازا وترتدى جبة صوفية فسألها من أين جاءت فأجابته «من عند الله» فقال «وأين أنت ذاهبة» فأجابت «إلى الله» فأخرج عند ذلك عملة ذهبية وقدمها اليها فنادت عليه قائلة «أى ذا النون انما الرأي الذى كونته عنى إلا ثمرة لتفكير ذكائك القاصر، فأنا أهمل لوجه الله

ولا أقبل شيئا من أحد سواه. أنا أعبده وحده، ولا آخذ شيئاً إلا منه وحده». وولت على أثر قولها في طريقها تاركة ذا النون يتمعن فى كلماتها.

وتحدث ذو النون عن أسفاره للبحث عن سبل الخلاص طيلة حياته «١٨٠ -٢٤٥هـ) قال: «لقد حصلت فى أول اسفارى علما يرضى الخاصة والعامة، وحصلت فى ثانيها علما يرضى الخاصة دون العامة وفي ثالث أسفار« حصلت من العلم ما لم ترض به لا الخاصة ولا العامة فغدوت شريدا طريدا. لقد حصلت العلم فى المرة الأولى والتوبة وهى مقبلة لدى الخاصة والعامة على حد سواء. وفى المرة الثانية وصلت الي التوكل على الله ومعاملته ومحبته وهى شئون تتقبلها الخاصة ولا تتفهمها العامة، وفى المرة الثالثة وصلت الى الحقيقة التي تسمو على العلم والعقل فأعرضا عنها لم يتفهماها.

وقد كان ذو النون مضطهدا من أجل تدريسه الصوفية علانية حتي انه قبض عليه فى أواخر أيامه وأرسل به الى بغداد حيث سجن مع السماح لصدقائه الصوفيين بزيارته إلى أن عفى عنه بأمر من الخليفة فعاد الى مصر حيث وافاه الأجل بمدينة الجيزة.

وهكذا، فقد كان ذو النون فى أول الأمر متنسكا متقشفا، زهد العالم فى الوحدة والعزلة حيث تدرب على كبح رغبات نفسه إلى أن تغلب عليها ثم سار عن طريق التوبة والتطهر الى أن حظى بهبة المعرفة فأصبح فى آخر الأمر صوفيا عارفا بالله، وهو يكاد أن يكون صوفيا تكلم عن المعرفة ووصف المراحل المختلفة التى تجتازها الروح فى سبيلها الى الوصول الي الله والعثور عليه.

ولذى النون أشعار رائعة تعكس رقة عشقه، وقوة ايمانه، منها قصيدته «كل المنى»:

أموتُ وما ماتت إليكَ صبابتى	ولا رويتُ من صدقِ حبك أوطارى
مناى المنى كلُّ المنى أنت لى منى	وأنت الغنى كل الغنى عند أقصارى

* * *

وأنت مدى سُؤلى وغايةُ رغبتى	وموضعُ شكواى ومكنونُ إضمارى
تحملَ قلبى فيك مالا أبثُه	وإن طالَ سُقمى فيكَ أو طالَ إضرارى

* * *

وبينَ ضلوعي منكَ ما لولاك قد بدا　　ولم يبدُ باديه لأهلي ولا جاري

وبي منك في الأحشاءِ داءٌ مخامرٌ　　فقد هدمني الركن وأثبت أسراري

* * *

ألستَ دليلَ الركبِ إن هم تحيروا　　ومنقذ من أشفى على جرف هاري

أنرتْ الهدى للمهتدين ولم يكنْ　　من النورِ في أيديهمِ عشر معشاري

* * *

فنلني بعفوٍ منك أحيي بقربهِ　　وغّشَ بيسرٍ منك فقري وإعساري

* * *

مالى سواك..

مـــــالى ســـــواك أغـــــثنى

وهـل ســـــواك نـصـــيـــر

ولـى إلـيـك شــــفـــيـع

بـدر المســــاء المـنـيـــر

« أحمد الحلوانى »

الشيخ العلامة أبو عبد الرحيم أحمد بن اسماعيل الحلوانى الشافعى أحد الذين يمثلون السمو الروحى فى الأدب الصوفى. وقد ولد الحلوانى فى احدى قرى محافظة الغربية (رأس الخليج) سنة ١٢٤٩ هـ وحفظ القرآن صغيرًا، ثم سرعان ما اتجه الى دراسة علوم الدين واللغة، وظل كذلك حتى التحق بالأزهر الشريف حيث تلقى العلم على يد اعلام عصره كالقصبى والباجورى والشبراوى.

وقد ترك الحلواني تراثًا شعريًا صوفيًا رائعًا ما بين اشعار وابتهالات واذكار صوفية لطالما تغنى بها المنشدون طيلة حياته، وبعد مماته فى سنة ١٣٠٨ هـ.

وسنقدم هنا لأحمد الحلوانى ابتهالاً صوفيا شديد الرقة والعذوبة بعنوان «مالى سواك».

استغفر الله ربّى	فالله رب غفورٌ
مما جناه جنَانِي	أو اللسان العَثُور
أو الجوارحُ منى	فإنها قد تثور
أو ظاهرٌ ليس يَخفى	أو باطنٌ مستور

* * *

أستغفر الله مما	قد قلتُه وهو زورٌ
ومن تَناس بناس	عمَّن هو المذكورُ
ومن خلاف أمورٍ	أنا بها مأمورٌ
أستغفر الله مماً	جرَى به المقدورُ .
من كل أمر معيب	قد كنتُ فيه أمورُ

* * *

لم يُرض ربِّى وقلبى	بكسْبه مسرورُ

إن سـرتُ يومـاً إليـه أطيـر حين أسـيرُ
وعـند أولِ جـزء منهُ يجيء الأخـيـرُ
وإن توخيتُ خيـراً صـرفـاً فكم أستخيـرُ
وإن تهـمـمتُ يومًا إليـه جـاء الفُـتورُ

* * *

وللتقدم أنوى فـيـعـرضُ التـأخيـرُ
هبْني تقدمتُ، مـاذا يُجـدى وقلبي نفـورُ
وهبْه غيـرَ نفـورِ هل فـيـه ثمَّ حضورُ
عـدمـتهُ من فـؤادٍ عند الصلاةِ يطيـرُ

* * *

أنوى فـي مذهبُ لبِّى وفى السلام يحـورُ
أظلُّ أحسبُ فيـهـا ومـا تحتويه الدُّهورُ
كـأنّنى بحـسابى مُـؤكـلٌ أو أجـيـرُ
فلو ترانى فـيـهـا لقلتَ: ذا مـبـهـورُ
فـفى العبـادة طرْفى ولو بصـيـراً ضـريرُ
وفى الذنوبِ فـؤادى على عَـمـاهُ بصـيـرُ

* * *

يـا ويـلـنـا مـن ذنوبٍ فُـجـورُها مـفـجـورٌ
ومـن خُـطـايَ اللواتى إلى الخطى تستطيـرُ
وآه مـن كُـلِّ إثـمٍ عليـه يُطوى الضـمـيـرُ
ومن مـقـاصد سوءٍ جـرى به التـعـبـيـر

* * *

شـيءٌ ومـنْ، لستُ أدرى؟ فـذاك شيءٌ كـثـيـرُ

قبائحُ كنتُ فيها أَسْرى وطور أسيرُ
ماتت وعاشت، فقلبي من أجلها مفطورُ
سُررتُ منها زماناً وغمُّها مذخورُ
نسيتها ودعاها كتابي المسطورُ

* * *

ماذا أقول لربيٍّ إذا بدا التحريرُ
يارَبّ أنت رحيمٌ وبالسَّماح جديرُ
يا ربّ أنت عفوٌ وأنت ربّ قديرُ
يارَبّ إني حقيرٌ جداً وأنت الكبيرُ

* * *

وشأنُ من جَلَّ يغضي إذا أساءَ الحقيرُ
وأين تُربٌ خسيسٌ من ربِّه يا مُجيرُ
وما أريد احتجاجاً عليْكَ بل أستجيرُ
أجرْ عبيدَكَ يا منْ سواه ليس يُجيرُ

* * *

مالي سواكَ أغثني وهل سواكَ نصيرُ
ولي إليك شفيعٌ بدرُ السماءِ المنيرُ
غوْثُ الأنام المرجيّ إذا المساء تمورُ
به توسَّلتُ فاجبرْ كَسْري، فإني كسيرُ
واسكُب عليه التحايا ما فاض منه النورُ

* * *

مجاهدة النفس..

وذلك لأن الناسَ قد آثرُوا الهوى
على الحقِ سراً ثم جهراً علانيَا
فهذا زمانُ الشرِ فاحذرْ سبيلَه
فإن سبيل الشرِ يروى المهاويا
« الأنطاكي »

هذا الصوفي الكبير أبو عبدالله أحمد بن أحمد بن عاصم الأنطاكي المتوفي سنة ٢٣٩ هـ يطلق عليه اسم "جاسوس القلب" حيث يدور كلامه دوما على المراقبة والمحاسبة وكبح جماح النفس. والأنطاكي يرى أن الصوفية هم "أهل الصدق"، ومجالستهم لذلك تكون بـ "الصدق". وعلم التصوف -كما يراه- هو "علم معاملات القلوب".

ويقول الأنطاكي: «إذا صارت المعاملة إلى القلب استراحت الروح، وعلى نفس مسئولة فتعهدها بالمحاسبة، وأستح من قبولك من نفسك دعواها الصدق، والحكيم من نظر بعين القلب، والقلوب تحتاج من أصحاب النفس الحية إلى دوام الرعاية، وإجمام القلوب يكون بقلة المخالطة وترك الطلب، ورقتها تستجلب بدوام مجالسة أهل الذكر من أهل العقول، ونورها يتحصل بدوام الحزن، واستفتاح الحزن يكون بطول الفكر، والتماس الفكر يكون في مواطن الخلوات.

وعندما نطالع ما تركه لنا الإنطاكي من رائع الشعر، وجميل النظم، نراه يلخص فيه حياته، ومجاهداته الروحية، وحقيقة تصوفه.

ولعل هذه القصيدة الرائعة والتي يعلم بها مريدوه «زمان الشر»، خير دليل على ذلك.

ألم ترى أن النفس يرديك شرُها	وأنك مأخوذ بما كنت ساعيا
فمن ذا يريد اليوم للنفس حكمةً	وعلمًا يزيد العقل للصدر شافيا
هلمَّ إليّ الآن إن كنت طالبًا	سبيل هدى أو كنت للحق باغيا
فعندي من الأبناء علمٌ مجربٌ	فنه بالهام ومنه سماعيا

* * *

أخـبـرُ أخـبـازاً تقَـادَمَ عـهـدُها وكـيـف بدا الإسـلام إذ كـان باديًا

وكـيـف نما حـتـى اسـتـتم كـمـالهُ وكـيـف ذوى اذ صـار كـالثـوب باليـا

ومن بعـد ذا عندى مـن العلم جـوهرٌ يفـيـدُك علمًـا إن وعـيت كـلامـيـا

وعـمـلا غـزيراً جـالى الريـن والصـدى عن القلـب حـتى يتـرك القلب صـافـيـا

* * *

فـأصـبـحتُ بالتـوفـيق للـحق واضـحًا وذاك بالـهـام من الله مـاضـيـا

لأنى فـى دهر تـغـرب وصـفـه فـصار غـريبا منوحش الأهل قـاسيا

فـأحـوج مـا كنا إلى وصف ديننا ووصف دلالات الـعـقـول زمـانيـا

عـجائب من خـيـر وشـر كليـهـما فـان كنت سـمـاعـا بدا للقلب واعـيا

فـقـد ندب الأسـلام أحـمـد ندبةً كـما ندب الأمـوات ذو الشـجو شـاجيا

* * *

فـأول مـا أبدأ بالحـمـد للذي يـراني لـلاسـلام اذ كـان باريا

وصـيـرنى إذا شـاء من نسل آدم ولم أكُ شـيـطانا مـن الجن عـاتيـا

ولا شـاء من إبليس صـيـر مخـرجي فكنـت مـضـلاً جـاحـدَ الحقِ باغـيـا

ولكـنه كـان بالـلطـفِ سـابقـا وإذا لم أكن حـيًا على الأرض مـاشـيـا

* * *

وصـيـرنى من بـعـد فى دين أحـمـدٌ وعـلمنى مـا غـاب عـنه سـؤالـيـا

وفـهـمـنى نـوراً وحكـمـة فـشكرى له فى الـشـاكـرين مـوازيا

فـمن أجـلٰ ذا أرجـو إذ كـان غـافـراً ومن أجـل ذا قـد صح منى رجـائيـا

ومـن أجل ذا أرجـــوه إذ لـم يكـافنـي ولكـن بلطـف منـه كــان ابتـــدائيــــا

* * *

فـــلا كنت ذا عـــقل لما قـــد رجـــوته لقــد كنتُ ذا خـوف وشـكرى مـحــاذيا

ولو كنـت أرجـوه لحـسن ضـيــعـه شكـرت فـصح الآن منى حــيـــائيـا

فـشكرى لـه إذا صيـرت بـالحق عــالما وللشــر وصـــافـا وللخـيـر واصــيـا

ومن بعـد ذا وصــفى لنفسي وطبـعـهـا ووصــفى غـيـرى إذ عـرفـت ابتـدائيـا

* * *

فــهـــذا مـن الأبناء وصـف غــرائب. فـمـن كــان وصـــفى لكان بـحــاليـا

فكيـف به إذا كـــان بـالحق عـــالما فــهـيـهــات لا ينجـيــه إلا الفــافـيـا

وذاك لأن النـاس قـــد آثروا الـهـــوى على الحـق ســر ثم جــهـراً عــلانـيـا

فــهـذا زمـان الشـر فـاحــذر سـبـيله فـــإن ســبــيل الشــرِ يردى المهـــاويا

* * *

البردة..

كـــــيف ترقى رقـــيك الأنبـــيــــاء

يا ســــمــــاء مــا طاولتـــهــا ســمـــاء

« البوصيرى »

البـوصـيـرى هو امام المـادحين، وأحـد أئـمـة الـصـوفـيـة المعـدوديـن، الـذين خـلـد ذكـرهـم، وخـاصـة بسـبب افاضـتـه، واجـادتـه فـى مـدح الرسـول الأعـظـم، وتقـديـمـه للـعـالم الاسـلامـي همـزيتـه الخالـدة "البـردة". وقـد سـمـى الامـام الجليل أبو عـبـدالله شـرف الـديـن مـحـمـد بن سـعـيـد المغـربـى الأصـل بالـبوصـيـرى نسـبـة إلـى "بوصير قـوريـدس" من قـرى بنـى سـويف حيث نشـأ هناك وأمـضـى جـزءا من عـمـره إلـى أن أقام بالاسـكـنـدرية آخـر حـيـاتـه حتـى مـات ودفـن فـى قـبـره الـذي شـيـد عليـه مسـجـده المسـمـى باسـمـه.

وقـد كان البـوصيـرى طيلة حيـاته التي امـتدت مـا يقرب من تسـعين عامـا (٦٠٨ – ٦٩٦هـ) أحد المدافعين عـن الاسلام، وأعظم من ردوا علي من افتروا عليـه، وخاصة ممن أنكروا نبـوة الرسول من غـير المسلمين، حيث ناقشـهم، وجادلهم وأقـام الحجة علـيهم، ويظهر ذلك فى مدائحه النبوية

وتذكر بعض كتب الصـوفية ومنها كتـاب «طبقات الشاذلية الكبرى» أن البـوصيرى، كان من أصحاب الهـمة العالية، كما تذكر أنه تعـرف بأهل الصلاح والتقوى والعلم في الاسكندرية، وانقطع الي التـصوف، وما اليـه، ودرس آدابه وأسراره. وأنه سلك على يد سيدى أبى العباس المرسى وأخذ عنه الحقائق والأسرار.

وسوف نقدم هنا همـزية البوصيرى النورانية«البـردة» التى لم تزل تمثل درة على جبين الشعر العربى قاطبة، وأعظم ما كتب فى مدح الرسول الأعظم من قصيد.

وقد اشتهر البوصـيرى بهذه القصيدة، وكان قد أصابه الفالج فـقطع على نفسه عهدا لئن شفاه الله أن ينظم قصيدة فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام «خير البرية»، ولذلك سميت قصيدته «الكواكب الدرية فى مدح خير البرية».

ويقال إن البوصـيرى كان قد بدأ فى نظم القصـيدة أثناء مرضه، فلمـا انتهى منها رأى

فى المنام رسول الله يمر بيده الكريمة على جسمه كله فيبرأ، ولذلك سميت القصيدة أيضاً باسم «البرأة»، وقد جازاه الرسول بأن خلع عليه بردته، ولذا سميت كذلك بالبردة.

وقد ذاع صيت هذه القصيدة حتي بلغ الآفاق، وتبارى الناس فى كل زمان ومكان، حتي يومنا هذا في ذكر مالها من كرامات، حتي صاروا ينشدونها فى مجالسهم، واحتفالاتهم الدينية تشفعا بالنبي، وطلبا لتفريج كربتهم، حتي سميت «قصيدة الشدائد».

ولهذه القصيدة الرائعة قصة ذكرها الشيخ الحملاوى فى كتابه «طراز البردة». وقد أراد بعض المحبين للبوصيري أن يرفعوا من قدر البردة. فنسبوا إليها الأشياء وغالوا فيما نسبوه إلى البوصيرى من كرامات فى البردة، حقيقة أن بعض ما نسب إليها صحيح، ولكن بعضها كان مغالا فيه ونقتصر هنا على الصحيح ونترك ما عداه، ما دامت صحته لم تثبت علي الاطلاق.

فالصحيح ما ذكر من قصة الشيخ الحملاوي حين أصيب بخراج فى بطنه استعصى علي الأطباء شفاؤه. فأرسل من يحج عنه علي حسابه الخاص وأمره أن يقرأ البردة أمام قبر الرسول متجها له بالشفاء.

وفى هذه الساعة التى قرئت فيه البردة أمام قبر الرسول انفجر الخراج من قلب الشيخ الحملاوى، وخرج الدم بكثرة حتى ملأ الحجرة ثم شفى بعدها.

ولما عاد الحاج من رحلته أخبره أنه قرأها الساعة كذا فى يوم كذا أى نفس الموعد الذى انفجر فيه الخراج وخرج الدم من قلب الشيخ الحملاوى.

ومن الصحيح أيضاً ما روى عن رجل أنه كان يقرأها ويواظب على قراءتها وأن بعض جيرانه كانوا يشمون رائحة جميلة تخرج من حجرته أثناء قراءته للبردة وتهب عليهم بين الحين والآخر.

وفيما يلى رائعة البوصيرى «البردة»، التى ما زالت حديث الناس فى كل مكان من العالم الاسلامى حتى يومنا هذا:

أمِن تـذكـر جـيـران بذى سَلمٍ … مَـزَجْتَ دَمـعًا جرى من مـقلةٍ بدمِ

أم هبت الريحُ من تـقـاءِ كـاظمـةٍ … وأومض البـرقُ فى الظلمـاءِ من إضَمِ

فـمـا لعـينيكَ ان قلتَ أكـفُفَـا هَمَتَـا … ومـا لقلبكَ ان قلتَ استـفق يَـهمِ

أيَحسـبُ الصَّبُّ أن الحبَّ مُنكَتمٌ … مـا بين منسـجم منه ومُـضطَرِمِ

لولا الهوى لم تُرِق دَمـعًا على طللٍ … ولا أرقتَ لـذكـر البـان والعَلَمِ

فكيفَ تنكرُ حبـاً بعـدما شـهدت … به علـيك عُـدُولُ الدمعِ والسـقمِ

وأثبتَ الوجـدُ خَطَّى عـبـرةٍ وضَنىً … مـثل البـهَـارِ على خـديكَ والعنَمِ

نعم سـرى طيفُ من أهوى فـأرقـنى … والحب يعـترض اللذاتِ بـالألمِ

بالائمى فى الهوى العذريِّ معـذرةً … منى اليك ولو أنصَفْتُ لَم تَلُمِ

عَدَتكَ حَالى لاسري بمستتر … عن الوُشـاةِ ولا دائى بمُنحسمِ

مَحَضتَنى النُّصحَ لَكن لستُ أسمَعُهُ … إن المحبَّ عن العُـذالِ فى صَمَمِ

إنى اتهمتُ نصيحَ الشَّيبِ فِى عَذَلى … والشيبُ أبعدُ فى نصح عن التُّهمِ

* * *

فـإنَّ أمَارتى بالسوءِ مـا اتعظت … من جهلها بنذيرِ الشيب والهَرَمِ

ولا أعَدت من الفعلِ الجميل قِرَى … ضيفٍ ألمَّ برأسى غيـر مُحتشمِ

لو كنتُ أعلَمُ أنى مـا أوقـرهُ … كتمت سـراً بدا لى منه بالكتمِ

من لِى يردُّ جِماح من غـوايتها … كما يُردُّ جماح الخيلِ باللُّجَمِ

فلا تَرُم بالمَعَاصِى كَسر شَهوتهَا … إن الطعامَ يُقوى شهوةَ النَّهِمِ

والنفسُ كالطفلِ إنْ تهمله شبَّ عَلَى … حُبِّ الرضاعِ وإن تفطِمه ينفطمِ

فـاصــرف هواها وحـــاذر أن تولّيـه ... إن الهـــوى مـــا تولى يصم أو يـصم

وراعـيهـا وهى فى الأعـمـال سـائـمـةٌ ... إن هي استـحلت المرعى فـلا تُسم

كم حـسَّنَت لذةً لـلمـرءِ قـاتـلةً ... من حـيث لم يدرِ أنَّ السُّمَّ فـى الدَسَم

واخشَ الدسائسَ من جـوعٍ ومن شبعٍ ... فـرُبَّ مـخـمَـصَة شَـرٌّ من التُـخمِ

واسـتـفرِغ الدَمعَ مـن عَينٍ قد امـتلأت ... من المحـارِم والزم حـمـيَـةَ الـندمِ

وخـالف النفسِ والشيطانَ واعـصهـما ... وان همـا مـحـضـاك النصحَ فـاتّهِمِ

ولا تطعْ منهُـما خـصمًـا ولا حكما ... فـأنـت تعـرف كـيـد الخـصمِ والحكمِ

أسـتـغـفـر الله من قـولٍ بلا عـملٍ ... لقــد نسـبت به نسـلا لذى عـقمِ

أمـرتُـكَ الخـيـر لكـن مـا أئتـمـرتُ به ... ومـا استـقـمتُ فما قـولى لك استـقمِ

ولا تـزودتُ قـــبـل المـوتِ نافـلـةً ... ولـم أُصَلِّ سـوى فـرضٍ ولَـمْ أصُمِ

* * *

ظلـمتُ سُنَّةَ من أحـيـا الظلامَ الى ... أن اشـتكت قـدمـاهُ الضـرَّ من وَرمِ

وشـد مـن سـغبٍ أحـشـاءه وطوى ... تحت الحـجـارةِ كـشـحًـا مُـترَفَ الأدمِ

وراودتْه الجـبـالُ الـشمُّ مـن ذهبٍ ... عن نـفـسـه فـأراهَا أيَّـمـا شـمَـمِ

وأكـدت زهـدَهُ فـيـهـا ضـرورتَه ... إن الضـرورة لا تعـد وعلى العـصمِ

وكـيف تـدعـو إلى الدنيـا ضـرورة من ... لولاه لـم تخـرج الدنيـا من العـدمِ

مُـحَـمَّـدٌ سـيـد الكـونين والثـقلـيـ ... ـن والفـريقين من عربٍ ومن عـجمِ

نبـينا الآمـر الـناهى فـلا أحَـدٌ ... أبَـرَّ فـى قــولِ لا مـنه ولا نَـعَـمِ

هو الحـبيبُ الـذى تُرجَى شـفـاعـتُـه ... لكـلِّ هَولٍ من الأهـوالِ مـقـتـحمِ

دعـا إلـى الله فـالمستـمـسكون به ... مستـمـسكون بحبلٍ غيـر منفـصم

فـاق الـنبـيين فى خَلقٍ وفى خُلُقٍ ... ولـم يُـدانُوهُ فـى عـلـمٍ ولا كَـرَمِ

وكُلُّـهُم مِـن رسـولِ الله مُلتـمِسٌ ... غَـرقًا من البحـرِ أو رشـفاً من الدِيَمِ

وواقـفـونَ لديه عـند حَـدِّهِمُ ... من نـقطـةِ العـلم أو مـن شَكَـلة الحِكمِ

فـهـذا الـذي تم مـعـناهُ وصـورته ... ثم أصطـفـاه حـبـيـبـا باري الـنَّسَمِ

منـزهٌ عن شـريك فى مـحـاسنه ... فـجـوهر الحسن فـيـه غـيـر منقـسمِ

دع مـا ادعتـه النصاري فـى نبيـهم ... واحكم بما شئت مـدحـا فـيـه واحـتكم

وأنسب إلى ذاتـه مـا شـئتَ مـن شـرفٍ ... وأنسب إلى قـدره مـا شـئـت من عِظمِ

فـإن فـضل رسـول الله ليس له ... حَـدٌّ فـيُـعـرِبَ عنـه ناطق بـفم

لو نـاسـبت قـدره آياته عـظمًـا ... أحيـا اسمُـهُ حـين يدعى دَارِسَ الرِّمَمِ

لم يمتَـحنَّا بمـا تَعـيَـا العـقـول به ... حـرصـا علينا فلـم تَرتبَ ولـم نـهم

أعـيـا الورى فَـهمُ مـعناه فلـيس يُرَى ... للقـرب والبعـد فـيـه غيـر منفـحم

كـالشـمس تظـهـر للعـينين من بُعـدٍ ... صـغـيـرةً وتُـكلُّ الطـرفَ من أممِ

وكـيـف يدرك فى الدنيـا حـقـيـقَـتَـهُ ... قـومٌ نيـامٌ تسلوا عـنه بـالحلـمِ

فـمـبلـغ العلم فـيـه أنـه بشـرٌ ... وأنـه خـيـر خلـق الله كُلِّهِـمِ

وكـل آيٍ أتى الـرسل الـكـرام بهـا ... فـإنمـا إتـصلـت من نـوره بِـهِـمِ

فـإنـه شـمسُ فـضلٍ هم كـواكـبـهـا ... يُظـهِـرنَ أنـوراها للـنـاس فـى الظـلمِ

أكـرم بـخـلـقِ نبـى زانـه خُـلُـقٌ ... بالحـسن مـشـتـملٍ بالبـشـرِ مـتـسمِ

كـالزهرِ فى ترفٍ والبـدرِ فى شـرف ... والبـحـر فى كـرمٍ والدهرِ فـى هممِ

كـــأنه وهـو فــردٌ فى جـــلالتـــه | فى عـــسكرٍ حين تـلقــاه وفى حـــشم
كـــأنما اللـؤلؤ المكـنون فى صـــدف | من مـــعــدنى منطـقٍ منهُ ومـبَـسَمِ
لا طيـبَ يعـــدلُ تربًا ضَـمَّ أعظُمَـــهُ | طُـوبَى لمنتـــشقٍ مـنه وملتــثِمِ

* * *

أبان مـــولـده عن طيب عـنصـــرهِ | يا طيـبَ مـبـتـدإ منه ومـخـتـتمِ
يومٌ تـفــرس فــيــه الفــرس أنـهم | قــد أنـذروا بحلول البــؤس والنـقمِ
وبات إيوان كـــســرى وهو منصــدعٌ | كشمل أصـحـاب كسرى غـير ملتئمِ
والنـار خـامـــدة الأنفـاس مـن أسف | عليــه والنهـر سـاهى العين مـن سـدمِ
وســاء ساوَة أن غـاضت بحـيـرتهـا | ورُدَّ واردهـا بالـغـــيـظ حـين ظمِـى
كـــأنَّ بالـنار مـــا بـالماء مـن بلـلٍ | حـــزنـاً وبالماء مـا بـالنار مـن ضــرمِ
والجن تـهــتف والأنوار ســاطعـــة | والحقُ يـظهـــرُ من مـــعـنى ومن كـلمِ
عَـمُـوا وصَـمُـوا فـإعـلانُ البشـائر لم | تســـمع وبـارقـــةُ الأنـذار لم تُـشَمِ
من بعــدِ مـا أخبَـرَ الأقـوامَ كـاهنُهُم | بـأن دينـهـم المعـــــوج لـم يَـقُـمِ
وبعـدمـا عـاينوا فـى الأفق من شـهـيب | منقـضـة وفق مـا فى الأرض من صنمِ
حـتى غـدا عن طريق الـوحى منهــزمٌ | من الشـــيــاطين يقــفــوا إثرَ منهــزمِ
كـــــأنـهـم هـربـا أبـطـال أبـرهـة | أو عـسكر بالحصى من راحتـيـه رُمِى
نبـذاً بـهِ بعــد تسـبـيحٍ ببطنـهـمـا | نَبْــذَ المُسَـبِحِ من أحيسـاءِ مُلتــقَمِ

* * *

جـاءت لـدعـوته الأشـجـار سـاجـدةً | تمشـى اليـــه على ســاقٍ بلا قـــدمِ

كـــأنما سطـرت سطرا لما كـتـــبت | فُـــروعُـــهَـــا مـن بديع الخـط باللَّـقَمِ
مِـثلُ الـغَـمَـامَـة أنىَّ سَـارَ سـائرةٌ | تقـيـه حـرَ وطيسٍ للهـجـيرِ حَـمِي
أقـــسمت بالقـــمــر المنشق ان له | من قلبـه نسـبـة مـبـرورة القــسم
ومـا حـوى الغـار مـن خـيـر ومن كـرم | وكل طـرف من الكـفـــار عنه عَـــمِى
فـالصدق فـى الغار والصـديق لم يرمـا | وهم يـقــولون مـــا بالغــــارِ من أرِمِ
ظنوا الحـمـامَ وظنـوا العنكبـوتَ على | خـــيـــر البـــرية لم تنسجْ ولم تَـحُمِ
وقـايـة الله أغنت عن مــضــاعــفـة | مـن الدروع وعـن عـــالٍ من الأُطُمِ
ما سـامنى الدهر ضَـيمًا واستجـرتُ به | الا ونـلتُ جـــــواراً منـهُ لـم يُضَـمِ
ولا التـــمــست عـنى الدارين مـن يده | الا استلمت النـدى من خـيـر مـستلمِ
لا تُـنـكـرِ الـرَحْـىَ مـن رؤيـاهُ إنَّ لَـهُ | قـلبـــًا إذا نامت العــينانِ لـم يَنَـمِ
وذاك حـين بـلـوغٍ مـن نبـــــؤتـه | فليس ينكر فــيـه حـال مـحـتلمِ
تبـــارك الله مـــا وحـى بمكـتــسب | ولانبى عـلـى غـــيـب بمُتَّــــهَـمِ
كم أبرأت وصـبـــًا بـاللمس راحتـه | وأطـلـقـت أربًا من ربـقَــــة الـلَّمَمِ
وأحـيـتِ السنَةَ الشـــهـبَــاء دعـــوتُه | حتى حكت غـرةً فـى الأعـصُـرِ الدهمِ
بعـارضٍ جَـــاد أو خِلتُ البطَـاح بهـا | سـيبًـا من اليَم أو سـيـلاً من العَـرِمِ

* * *

دعنـى ووصـــفى آيات لـه ظهـــرت | ظهـــور نار القـــرى لـبــلاً على عَـلَمِ
فـــالـدر يزدادُ حـسـنًا وهو مـنـتـظمٌ | وليس يَنقُصُ قـــدراً غــيـــر منتظمِ
فـــمـــا تطَـاول آمـــالِ المديـح الى | مـا فـيـه من كـرم الأخـلاق والشـيمِ

آياتُ حق من الرحمن محدثة ... قديمة صفة الموصوف بالقدم
لم تقترن بزمانٍ وهي تخبرنا ... عن المعاد وعن عادٍ وعن إرمِ
دامت لدينا ففاقت كل معجزة ... من النبيينَ إذ جاءَت ولم تَدُمِ
محكماتٌ فما تبقينَ من شُبَهٍ ... لذى شقاقٍ وما تبغينَ من حكمِ
ما حُوربِتَ قط الا عادَ من حربٍ ... أعدى الأعادي اليها ملقى السَّلَمِ
ردت بلاغتها دعوى معارضها ... رد الغيور يد الجاني عن الحُرَمِ
لها معانٍ كموج البحرِ فى مددٍ ... وفوق جوهره فى الحسن والقيمِ
فما تعد ولا تحصى عجائبها ... ولا تسام على الأكثار بالسَّأمِ
قُرَّت بها عين قاريها فقلت له ... لقد ظَفرتَ بحبل الله فاعتصمِ
ان تَتلُهَا خِيفةً من حر نار لظى ... أطفأت حر لظى من ورودها الشَّبِمِ
كأنها الحوضُ تَبيضُّ الوجوهُ به ... من العصاة وقد جاءُوهُ كالحُمَمِ
وكالصراط وكالميزان معدلةً ... فالقسطُ من غيرها فى الناس لم يَقُمِ
لا تعجبن لحسود راح ينكرها ... تجاهلاً وهو عين الحاذق الفهمِ
قد تنكر العينُ ضوءَ الشمس من رمدٍ ... وينكر الفمُ طعمَ الماء من سقمِ

***

يا خير من يَمَّمَ العافُونَ ساحتهُ ... سعيا وفوق متون الأينُقِ الرُّسُمِ
ومَن هو الآيةُ الكبرى لمعتَبرٍ ... ومن هو النعمة العظمى لمغتنمِ
سريت من حرمٍ ليلا الي حرمٍ ... كما سرى البدرُ فى داجٍ من الظلمِ
وبت ترقى الى أن نلتَ منزلةً ... من قابِ قوسين لم تدرك ولم ترمِ

وقدمتك جميع الأنبياء بها ... والرسل تقديم مخدومٍ على خدمِ

وأنت تخترق السبع الطباق بهم ... في موكبٍ كنت فيه صاحب العَلَمِ

حتى إذا لم تدع شأواً لمستبقٍ ... من الدنُوَ ولا مرقى لمستنمِ

خفضت كل مقام بالاضافة اذ ... نوديت بالرفع مثل المفرد العلمِ

كيما تفوز بوصلٍ أيِّ مستترٍ ... عن العيون وَسرٍّ مكتَتمِ

فحُزتَ كل فخارٍ غير مشتركٍ ... وَجُزتَ كل مقامٍ غير مزدحمِ

وجل مقدارُ ما وليت من رتب ... وعز ادراكُ ما أوليت من نعمِ

بشرى لنا معشر الاسلام ان لنا ... من العناية ركنا غير منهدمِ

لما دعا الله داعينا لطاعته ... بأكرم الرسل كنا أكرمَ الأمَمِ

* * *

راعت قلوب العدا أنباء بعثته ... كنبأة أجفلت غفلاً من الغنمِ

ما زال يلقاهم فى كل معتركٍ ... حتى حكوا بالقَنَا لحماً على وضَمِ

ودوا الفرَار فكادوا يغبطون به ... أشلاء شالت مع العقبان والرخمِ

تمضى الليالى ولا يدرون عِدتَّهَا ... ما لم تكن من ليالى الأشهرِ الحُرمِ

كأنما الدين ضيف حل ساحتهم ... بكل قَرمٍ الي لحم العِداَ قَرِمِ

يَجُرُ بَحَرَ خَميسٍ فوق سابحة ... يرمى بموجٍ من الأبطال مُلتَطِمِ

من كل منتدبٍ لله محتسب ... يسطو بمستأصل للكفر مصطلمِ

حتى غدت مِلةُ الاسلام وهى بهم ... من بعد غربتها موصولة الرحِمِ

مكفولةً أبدا منهم بخيرِ أبٍ ... وخير بعلٍ فلم تَيتَم ولم تَئِمِ

هم الجبـالُ فسَلْ عنهم مصادمَهُمْ ... ماذا رأي منهم في كل مصطدمِ

وسل حنينًا وسل بدرًا وسل أُحدًا ... فصول حتف لهم أدهى من الوَخَمِ

المُصدري البيض حُمرًا بعدما وردت ... من العدا كل مسوَدٍّ من اللمَمِ

والكاتبينَ بسمرِ الخَطِّ ما تركت ... أقلامهم حرفَ جسمٍ غيرَ منعجمِ

شاكي السلاح لهم سِيمَا تميزهم ... والورد يمتاز بالسيما من السَّلَمِ

تهدى اليك رياحُ النصرِ نشرَهمُ ... فتحسب الزهرَ في الأكمام كل كَمِي

كأنهم في ظهور الخيل نبتُ رُبًا ... من شدة الحَزم لا من شدة الحُزُمِ

طارت قلوب العدا من بأسهم فرقًا ... فما تفرق بين البَهمِ والبُهَمِ

ومن تكن برسول الله نصرتُه ... إنَ تَلقَهُ الأسدُ في آجامِها تَجمِ

ولن ترى من ولي غير منتصرٍ ... به ولا من عدو غير منقصمِ

أحل أمنه في حرز ملته ... كالليثِ حلَّ مع الأشبالِ في أَجَمِ

كم جَدَّلَت كلماتُ الله من جَدِلٍ ... فيه وكم خَصَمَ البرهانُ من خَصِمِ

كفاك بالعِلمِ في الأميِّ معجزةً ... في الجاهلية والتأديبِ في اليُتُمِ

* * *

خدمتُهُ بمديح أستقيلُ به ... ذنوبَ عمرٍ مضى في الشعرِ والخِدَمِ

اذ قلداني ما تخشى عواقبه ... كأنني بهما هديٌ من النعمِ

أطعت غيَّ الصبا في الحالتين وما ... حصلت الا على الآثامِ والندمِ

فيا خسارةَ نفسٍ في تجارتها ... لم تشترِ الدين بالدنيا ولم تَسُمِ

ومن يبع آجلاً منه بعاجله ... يبن لهُ الغَبنُ في بيعٍ وفي سَلَمِ

إنْ آتِ ذنبًا فما عهدى بمنتقضٍ ... من النبى ولا حَبلى بمُنصَرِمِ

فإن لى ذمَّةً منهُ بتسميتى ... محمداً وهو أوفى الخلق بالذممِ

إن لم يكن فى معادى آخذاً بيدى ... فضلاً وإلا فَقُلْ يا زَلَّةَ القدمِ

حاشاهُ أن يحرم الراجى مكارِمَهُ ... أو يرجع الجارُ منه غير مُحتَرمِ

ومنذ ألزمتُ أفكارى مدائحه ... وجدته لخلاصى خير ملتزمِ

ولن يفوت الغنى منه يداً تَرِبَتْ ... إن الحَيا يُنبتُ الأزهَارَ فى الأكَمِ

ولم أرِد زهرةَ الدنيا التى اقتطفت ... يدا زهيرٍ بما أثنى على هَرِمِ

* * *

يا أكرمَ الخلق ما لى من ألوذُ به ... سواك عند حلول الحادث العممِ

ولن يضيق رسول الله جاهُكَ بى ... اذا الكريمُ تحلى باسم مُنتَقمِ

فان من جُودِكَ الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوحِ والقلمِ

يا نفس لا تقنطى من زلةٍ عَظُمتْ ... إن الكبائرَ فى الغفرانِ كاللَّمَمِ

لعلى رحمةَ ربى حين يقسمها ... تأتى على حسب العصيان فى القسمِ

يارب واجعل رجائى غير منعكسٍ ... لديك واجعل حسابى غير منخرمِ

والطف بعبدكَ فى الدارين إن له ... صبراً متى تدعهُ الأهوالُ يَنهَزِمِ

وأْذَن لسحبِ صلاةٍ منكَ دائمةٍ ... على النبىِّ بمنهلٍ ومُنسَجِمِ

ما رنَّحَت عذابات البانِ ريحُ صَبًا ... وأطرب العيسَ حادى العيسِ بالنَّغَمِ

ثم الرضا عن أبيبكرٍ وعن عمر ... وعن علىٍّ وعن عثمانَ ذى الكرَمِ

والأل والصحب ثم التابعين فهم ... أهل التقى والنقا والحلم والكرمِ

يارب بالمصطفى بلغ مقاصدنا واغفر لنا ما مضى يا واسعَ الكرمِ

واغفر الهى لكل المسلمين بما يتلون فى المسجد الأقصى وفى الحرمِ

بجاه من بيته فى طِيبَةٍ حَرمٍ واسمُهُ قسمٌ من أعظم القسمِ

وهذه بردة المختار قد خُتِمَتْ والحمد لله فى بدءٍ وفى خَتَمِ

أبياتُهَا قد أَتَت سِتِّينَ مع مِائةٍ فرج بها كربْنَا يا واسِعَ الكَرَمِ

* * *

سلمى..

شـربنا حُـمـيّـا الكأس فى قـدس حـضـرةٍ

وأكـرم بهـا فـى حـضـرة القُـدس من خـمـرِ

لنـا عُـصِـرَتْ من كَـرمْ نـور جـمـال مَنْ

سـقـانـا وقـد غـنينا وحـرنا فـمـا ندرى

سكـرنا بهـا من شـمـهـا قـبـل شـربهـا

نـشـاوى بـريّـاها إلـى آخـر الـدهـرِ

« اليـافـعـى »

هذا شاعر صوفى آخر، يفيض شعره رقة وعذوبة، ويعجز المرء عن ادراك كل معانيه، وبلوغ جميع مقاصده، ما لم يحط بشخصية صاحبه المتفردة، ومكانته الرفيعة فى عوالم الصوفية، والحب الالهى. شاعرنا هنا هو عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعى، نسبته الى "يافع" من حمير، مولده ونشأته فى عدن بأرض اليمن.

كان اليافعى ذا علم غزير وإطلاع كبير، ومعرفة واسعة، وعلوم نافعة. بدأ حياته مهتما بدراسة الفقه، وعلوم القرآن، ووجد فى نفسه مع الأيام ميلا الي التصوف.

وعندما وجد اليافعى فى نفسه رغبة في الاستزدادة من مناهل العلم، على يد أعلام عصره، ارتحل الي القدس، ثم دمشق ثم الحجاز لينتهي في مصر، حيث ذاع صيته، وانتشرت قصائده وترانيمه الصوفية، وأضحى علما من أعلام التصوف.

ولليافعى مؤلفات كثيرة فى التصوف وأعلامه تهافت الناس عليها كثيرا، على مدى سبعين عاما وهى عمره كله (٦٩٨ -٧٦٨م)، ومن أشهر هذه المؤلفات: «نشر المحاسن الغالية فى فضل مشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية».

وفى هذا المؤلف يشرح اليافعى بأسلوب أدبى جميل الأحوال والمقامات، كما يضمنه ما نظمه من أشعار وترانيم صوفية.

ومن أهم مؤلفات اليافعى أيضاً «روض الرياحين فى مناقب الصالحين»، الذى يتناول سير خمسمائه من أعلام الصوفية الكبار، أخبارهم، مناقبهم، كراماتهم، شمائلهم، وكل ما يرتبط بحياتهم وأعمالهم.

أما شعر اليافعى فيمكن أن ننظر إليه كمنظومات صوفية تمثل فنا وسطا، فلا هي بالشعر المطبوع، ولا هي بالنظم المتكلف، وقصائده تفيض بصدق العاطفة، وشفافية الروح، ويغلب عليها الرمز.

واانظر اليه يقول فى قصيدة بعنوان «لباب اللب فى مدح شهيد الحب» يتوقف عند أروع المعانى الصوفية «المحبة» ويدعو إلى الموت عشقا:

قتيلُ العوى فى مذهب الحب والفقر ... بلا عوضٍ حاشاه من طلب الأجرِ

سوى رؤية المحبوب فى ساعة القا ... اذا ما قتيل السيف عوض فى الحشرِ

فشتّان ما بين المقامين فى العُلى ... وبين شهيد الحب والسيف فى القَدْرِ

فما طالبُ مولى له طال شوقه ... وفى حبه قد مات خالٍ عن الصبرِ

كطالب مطعوم الجنان وشربها ... وملبوسها والخيل والحور والقصرِ

كفى شرفًا موت المحب صبابةً ... بمولى، وفضلاً جلّ قدراً عن الحصرِ

قتيل جمالٍ قد ودُوه برؤيةٍ ... ووصلٍ وقربٍ والتنادمِ والسرِّ

وتكمن أهمية شعر اليافعى فى أنه ينشر الثقافة الصوفية وأعلامها. ولليافعى أشعار كثيرة تفيض رقة وعذوبة، الا اننا سوف نورد هنا رائعته الذي اخترنا لها اسم «سلمى»، واسمها الأصلى «الراح المختوم والدر المنظوم فى مدح المشايخ أصحاب السر المكتوم، وذم الطاعنين فيهم من جميع الخصوم»:

سلا عن حمى سلمى، وعن أهله الغرِّ ... عسى خبرٌ يلقاكما، طيّب الذكرِ

يجىءُ به من نحوها عذبُ منطق ... يفوح به من ريحها طيّبُ النشرِ

يُخّبر عن سلمى وعن ذلك الحمى ... وقول لسان الحال فى نظمه الدرّى

رعى الله عهداً مربّع جيرة الحمى ... هنا فى رياضٍ زاهراتٍ به زُهْر

سقتنا بها سلمى من الراح عندما ... بدتْ فأضاء الكون من جانب الخدرِ

* * *

أماطت حجابًا عن بهاء جمالها ... فهمنا سكارى فى المهامة والقفرِ
نرومُ التسلىِّ عن هواها ببُعْدنا ... وكلٌّ جمال فى الوجود بها يغرى
خليلَّى ما سلمى ونجدٌ وما الحمى ... وما راحُها، ما كأسُها، ما الهوى العُذرى
شربنا حميًّا الكأس فى قُدس حضرةٍ ... وأكُرِم بها فى حضرة القُدْسِ من خمْرِ
لنا عُصرت من كرْم نورِ جمال منْ ... سقانا، وقد غبنا وحرنا فما ندرى

* * *

سكرنا بها من شمها قبلَ شرْبها ... نشاوى بريّاها إلى آخر الدهرِ
أو السّكر ذا من رؤية الكأس، أو أنت ... به رؤية الساقى الينا ذوى السُّكْرِ
تجلىًّ بأوصاف الجمالِ فشاهدت ... عيونُ قلوب ما به حار ذو الفكْرِ
فيا ليلةٌ فيها السعاداتُ والمنى ... لقد صغُرت فى جنبها ليلة القدْرِ
فلما شربنا الراحَ فى ساحة الرِّضا ... أتانا أغرُّ السَّعْدِ بالخلعِ الخُضْرِ
رسول عنايات برسم ولاية ... وتصريفنا فى الملك فى البَرِّ والبحْرِ
وضاءت لنا أنوارُ غيبِ وشوهدت ... أمورٌ وأعلمنا بها أنها تجرى
وحلّت بوادى طور قلب معارف ... زهت فيه كم حسناء فى داخل الخدرِ
وكمْ حكم تجلى ملاح، كأنها ... عرائسُ أبكارٌ على منطق الدرِّ
وكم يدفع الله البلايا بسادةٍ ... من الخلق فى كشفِ الشدائد والضُرِّ

* * *

فمنْ لم بذا يؤمنْ، فقولوا له إذا ... تجرًّا على الغُرِّ المشايخ بالنُكْرِ
تجلّى فُضولاً فى فضائل سادة ... لهم فى سما مجدِ المفاخر كم قَصْرِ
مقاماتُ أحباب ترى الشهب دونَها ... بنُوها بياقوت المواهبِ والدرِّ
تضىء الدّياجى منَ بهاء جمالها ... بما يهتدى مَنْ للعلا نحوها يسرى
وما تلك من أشباهِ عُشِّك، فاد[illegible] ... إلى جوفِ عشٍّ فى الغيابات أو جُحْرِ

* * *

كأسي وخمري..

أحـــبُك حُـــبين: حب الهـــوى

وحـــبًـــا لأنك أهل لذاكـــا

فـــأمـــا الذى هو حُبُ الهـــوى

فـشــغلى بذكـركِ عـمنْ سـواكـــا

« رابعة العدوية »

نعم هى أشهر النساء اللائى عرفن بالزهد، بل التصوف، فعزفن عن الحياة الدنيا، وتقشفن، وتنسكن، وتعبدن الله، انها ام الخير رابعة القيسية، والتى تغلب عليها الاشتهار برابعة العدوية.. ومن نادر كلامها فى النسك والزهد، قولها وقد قيل لها: لو كلمنا رجال عشيرتك فاشتروا لك خادماً تكفيك مؤونة بيتك؟ فقالت وهو من بليغ القول : والله إنى لأستحى أن أسأل الدنيا من يملك الدنيا، فكيف أسألها من لا يملكها؟.

وتعبيراً عن بالغ خشيتها من الذنب، قولها لمن قال لها: هل عملت عملا قط ترين أنه يقبل منك؟ فقالت: ان كان شيء فخوفى من أن يرد على.

وقال رجل لرابعة: انى قد اكترث من الذنوب والمعاصى، فهل يتوب على أن تبت؟ قالت وهو من نادر القول: لا ، بل لو تاب عليك لتبت.

ويروون عن العدوية أنها وهى طفلة خرجت هي واخواتها من شدة الجوع وقت أن نزل القحط بالبصرة فوجدها رجل باعها بستة دراهم، وكانت تقرض الشعر وتغنيه وتعزف على الناى، ولها مزاج فنى رقيق وميل طبعى الى الحزن ، ولعلها لذلك كانت تحب الناى عن العود.

وشعر رابعة العدوية فيه لغة النساء، وربما استعملها سيدها للغناء فى مجالسه وكان ذلك يسخطها عليه بسبب اتجاهاتها الدينية القوية حتى أنها شرعت فى الهرب وناجت ربها قائلة: «الهى! اني غريبة ويتيمة وأرسف في قيود الرق، ولكن همى الكبير هو أن أعرف أراض أنت عنى أم غير راض؟» أي أنها ربما كانت تخشى أن تبوء بغضب الله بسبب ما كان يجبرها عليه سيدها.

وقد زادها ذلك من التهافت على العبادة والابتهال الي الله أن يقيلها من عثرتها، وقد تسمع عليها سيدها فى ليلة فوجدها تقول وهى ساجدة: «الهى! أنت تعلم أن قلبى يتمنى طاعتك، ونور عينى فى خدمة عتبتك، ولو كان الأمر بيدى لما انقطعت لحظة عن خدمتك، لكنك تركتنى تحت رحمة هذا المخلوق القاسى من عبدتك!»، فلما كان الصباح طلبها سيدها وأعتقها ، فكان ذلك مدعاة أكثر للتوجه للشكر لربها فانصرفت بكليتها اليه وقد تحررت من رقها.

وكانت اذا انتهت من صلاة العشاء تصعد الي سطح دارها بعد أن تشد عليها درعها وخمارها وتدعو «الهى أنارت النجوم، ونامت العيون ، وغلقت الملوك أبوابها، وخلا كل حبيب بحبيبه، وهذا مقامى بين يديك»، ثم تقبل على الصلاة فاذا كان السحر وطلع الفجر قالت: «الهى هذا الليل قد أدبر، وهذا النهار قد أسفر، فليت شعرى أقبلت منى ليلتى فأهنأ، أم رددتها على فأعزى؟ فوعزتى هذا دأبى ما أحييتنى وأعنتنى!».

وقد أطلق على رابعة العدوية التى توفيت فى البصرة سنة ١٣٥ هـ اسم »شاعرة المحبة الالهية» ، ويميل البعض الى النظر اليها كأول من تكلم من الصوفيين فى المحبة الالهية ، وأدخل هذا المعنى فى التصوف الاسلامي.

ومن خلال أشعارها فى المحبة الالهية ظهرت دعوة رابعة العدوية واضحة جلية، للتقرب الي الله عن طريق حبه.

وها هي ، رائعة رابعة العدوية «كأسى وخمرى» -فى رأينا طبعا- وبعدها «أحبك حبين» أشهر أشعارها وبعدها بعض مقطوعاتها التى وصلتنا وهى قليلة، لكنها شديدة الحلاوة، شديدة العذوبة، ذات ايقاع خلاب، وموسيقى ساحرة:

كأسى وخمرى والنديم ثلاثة   وأنا المشوقة فى المحبة رابعة

كأسى المسرة والنعيم يديرها   ساقى المدام على المدى متتابعة

فـــــإذا نـظرت فـــــلا أرى إلاَّ لـه وإذا حـضـرت فـــلا أرى إلا مـعـه

يا عـــــاذلـى إنِى أحـبُ جـــمـــــالَهُ تالله مـــا أُذنى لـعــذلـكِ سـامـعـــة

* * *

أحـــبك حـــبين: حـب الهـــوى وحــــبًّـــــا لأنـك أهلٌ لـذاكــــا

فــــأمـــــا الـذى هو حـبُ الهــــوى فـشـغـلى بذكـرك عـمـن سـواكـا

وأمـــــــــا الـــذى أنـت أهـلٌ لـه فكشـفـك للحُـجب حــتى أراكـــا

فــلا الحـــمــــدُ فـى ذا ولا ذاك لى ولكـن لك الحــمـــد فى ذا وذاكـــا

* * *

راحــــتى يا اخـــــوتى فى خلوتى وحـبـيـبى دائمـاً فـى حـضـــرتى

لم أجـــدْ لى عـن هواه عـــوضًـــا وهـواه فى البـــرايا مــــحـــنتى

حــيــثـمـا كـنت أشــاهد حـسـنه فــــهــــو مــحـــرابى إليــه قـبلتى

إن متُ وجـــــداً ومــــا ثـم رضـــا وأعـنائى فـى الورى وأشـــقـــوتى

يـا طبــــــيبَ القـلـبِ يـا كلُ المنى جُـدْ بوصل مـنك يشـفى مـهـجـتى

يا ســــرورى وحـــيـــاتى دائـمـــاً نشـــأتى مـنك وأيضــاً نشـــوتى

قــد هجـرتُ الخلـقَ جـمـعــاً أرتجى منك وصــلاً فــهــو أقـصى منيـتى

* * *

يا ســــرورى ومـنيـــتى وعـــمـــاد وأنـيــــسى وعُـــدتى ومُـــرادى

أنت روح الـفـــؤاد، أنت رجـــائـى أنت لـى مـــؤنس وشـــوقك زادى

أنـت لولاك يـا حــــيــــاتى وأنـس مـــا تشـــتـت فى فـــسـيح البــلاد

كم بدت منَّة وكم لك عندى من عطاء ونعمةٍ وأيادى
حبك الآن بغيتى ونعيمى وجلاء لعين قلبى الصادى
ليس لى عنك ما حييتُ براح أنت منى مُمَكَّن فى السواد
أن تكن راضياً عليَّ فإنى يا منى القلب قد باد إسعادى

* * *

تدللا..

نصحتك علما بالهوى.. والذى أرى

مخالفتى.. فاختر لنفسك ما يحلو

فإن شئت أن تحيا سعيدا فَمُت بهِ

شهيداً وإلا فالغرام له أهل

« ابن الفارض »

لا يذكر التصوف الا ويأتى اسمه فى أول الذكر، ولا يأتى الحديث عن أشعار الحب الالهى، والترانيم الصوفية، الا وتراه فى المقدمة. إنه إبن الفارض في العشق سلطان العاشقين ـ كما هو عند الصوفية ـ وفي الحب إمام المحبين، وفي الهوي قدوة المقتدين، وفي النظم أشعر المتصوفين، ويراه كثيرون علي أنه الصوفي المصري الأول بلا منازع، وزعيم شعراء الصوفية من العرب.

ولقد اختلفت في ابن الفارض الآراء والأقوال، فبعضهم ينسبه إلي الكفر والقول بالاتحادية، وبعضهم يصفه بالقبطانية ويسرف في الثناء عليه، فمن يكون إبن الفارض؟

هو شرف الدين أبو حفص عمر بن أبي الحسن علي بن المرشد بن علي الحموي المصري، المعروف بإبن الفارض، لأن أباه كان يعمل فارضا، أي يثبت الفروض للنساء على الرجال بين يدي الحكام، فغلب عليه لقب «الفارض» وعرف ولده بابن الفارض.

وإبن الفارض مصري المولد والنشأة والوطن، وكان عميق الحب لمصر، ينوه بها ويتغنى فيها، ولقد عاش في عصر الأيوبيين (٥٥٦ ـ ٦٣٢هـ) وفيه شاع مذهب أهل السنة، وصار فيه للصوفية مكانة، فهو عصر يسوده المذهب السني والاتجاه الصوفي والنزعة الشعرية، ولقد تعاونت علي تكوين شخصية إبن الفارض بيئات ثلاث: الشام، وهي أصله ومنبت أسرته، والشام تغلب علي أهله رقة الطبع، ومصر مكان مولده ونشأته، ولمصر مكانتها، والحجاز وفيه أقام ابن الفارض خمسة عشر عاما، وللحجاز نفحاته.

ولقد نشأ إبن الفارض عفيفا متصوفا، زاهدا متعبدا، ورعا متدينا، درس الحديث وفقه الشافعية، وكان يحب الخلوة والعزلة وكثيرا ما كان يؤوي إلي ناحية في جبل المقطم، تسمي «وادي المستضعفين»، أو في أحد المساجد المهجورة في القرافة.

وحينما سلك ابن الفارض طريق التصوف بدأ بسلوك طريق التصفية والتنقية

والتجريد وقد جمع ابن الفارض بين ثلاث: الشاعرية ذات الحس الدقيق والشعور الرقيق، والصوفية ذات الذوق، والرياضة والمجاهدة، والمحبة ذات العواطف الشريفة والانفعالات العفيفة التي تستبد بها النزعة الروحية التي يصعب علينا تحديدها أو تقييدها.

ولم يخلف لنا إبن الفارض آثارا مكتوبة غير ديوانه الشعري وهذا الديوان ينظر إليه أهل الأدب علي أنه كغيره من دواوين الشعر الغزلي البشري، وينظر إليه أهل التصوف علي أنه ديوان شعر صوفي نظمه صاحبه في الحب الالهي.

ومن الواضح الجلي أن شعر إبن الفارض تسيطر عليه عاطفة الحب، سواء أكان حبا حسيا أو حبا روحيا، وهناك من الباحثين الأدباء من يقرر أن حب إبن الفارض كان في عهد شبابه حبا حسيا، فقد كان في شبابه مضرب المثل في نضارة الجسم والشكل وبهاء المنظر، ولكنه في عهد الكهولة إنتقل إلي الحب الروحي الالهي، ومما يقوي هذا الاستنباط أن بعض الغزل في شعر إبن الفارض يصعب تأويله علي أنه غزل روحي. ومن أمثلة ذلك قوله:

ولما تلاقينا عشاءً، وضمنا	سواء سبيلي دارها وخيامِي
وملنا كذا شيئا عن الحي، حيث لا	رقيبٌ، ولا واشٍ بزورِ كلامِ
فرشتُ لها خدي وطاءً علي الثري	فقال: لك البشر بلثمِ لثامِي
فما سمحتْ نفسي بذلك غيرةً	على صونِها مني لعزِ مرامِي
وبِتنا كما شاء إقتراحي على المني	أري الملكَ ملكِي والزمانَ غلامِي

وسوف نقدم هنا ـ عزيزي القارئ ـ رائعة ابن الفارض «ته دلالا»، التي تمثل درة علي جبين الشعر:

تـه دلالاً فأنت أهلٌ لذاكا	وتحكم فالحسن قد أعطاكا

ولك الأمــــرُ مـــا أنت قـــاضٍ فــعليَّ الجــمــالُ قــد ولاَّكــا

وتلافـي ان كـــان فـيـــه ائتــلافي بِكَ، عـــجِّل به جُـــعلتُ فـداكــا

وبما شــئت في هـواكَ اخـتــبـرني فـاخـتــبـاري مـا كـان فيــه رضـاكـا

فــــعلى كـلِّ حــــالةٍ أنـت منيِّ بـي أولـى، وإذْ لم أكـنْ لـولاكـــــا

* * *

وكـــفـــاني عـــزاً بحــــبك ذُلِّي وخــضـوعي، ولـست من أكــفـاكـا

وإذا مـــا إليـك بالـوصل عـــزَّتْ نســـبـــتي عـــزَّةٌ وصحَّ ولاكـــا

فـــاتهـامي بالحب حـــسْـبي، وإني بين قـــومي أُعـــدُّ مـن قـتـــلاكـا

لــك فـي الحـيِّ هـالـكٌ بـك حـيٌّ في سـبـيل الهـوي اسـتلذَّ الهـلاكـا

عـبـــد رقٍّ مـــارقَّ يومًــا لـعــتق لو تـخَلَيْتَ عـنه مـــا خــــلاَّكـــا

* * *

بجـــمـــالٍ حـــجـــبْـتـــهُ، بجـــلالِ هامَ وإسـتـعـذَب العـذابَ هناكـا

وإذا مـــــا أمْنُ الرجــــا منه أدنـا كَ، فـعنهُ خـوفُ الحِـجى أقـصــاكـا

فـبـــإقـدام رغـبـــةٍ حين يغـــشـا كَ، باحـــجـامِ رهبـــةٍ يخــشــاكـا

ذات قـلب فــــأذَنْ له يـتــــمنَّا كَ، وفــيـــه بقـــيـــةٌ لرجـــاكـا

أومـــر الـغـــمْضَ أن يمـرُ بِجـفْني فكـأني به مـطيـــعًــا عــصـــاكـا

* * *

فـعسى في المنام يعـرضُ لي الـوهــ ـــم، فـيـوحي سـراً إلي سُـراكــا

وإذا لم تُنعش بروح التمني رمقي، واقتضي فنائي بقاكا

وحمت سُنَّةُ الهوي سنة الغَمْـ ـض جفُوني، وحرِّمت لُقْياكَا

أبْقِ لي مقْلَةً لعلِّيَ يومًا قبل موتي أري بها من رآكا

أين مني مارمتُ هيْهاتَ، بل أيـ ـنَ لعيني بالجفنِ لَثْمُ ثراكا

* * *

فَبشيري لو جاء منْكَ بعطْفٍ ووجوي في قبضتي، قلت هاكا

قد كفي ما أري دما من جُفونٍ بك قرْحى، فهل جرى ما كفاكا

فأجر من قلاكَ فيك مُعنيً قبل أن يعرفُ الهوى يهواكا

هبْكَ أنَّ اللاَّحى نهاهْ بِجهلٍ عنْكَ قُلْ لي عن وصله منْ نهاكَا

وإلي عِشْقِكَ الجمالُ دعاهُ فإلي هجْره تري من دعاكا

* * *

أتُرى مَنْ أفتاكَ بالصدِّ عنيِّ ولغيري بالودِّ مَنْ أفتاكا

بانكساري بذلَّتي بخضوعي بافتقاري بفاقتي بِغناكا

لاتكلني إلى قوى جلَدٍ خا نَ، فاني أصبحتُ من ضُعفاكا

كنت تجفو وكان لي بعضُ صِبْرٍ أحْسَنَ اللهُ في اصطباري عزَاكَا

كم صدودًا عساكَ ترحمُ شكوا ى، ولو باستماع قَولي عساكا

شنَّع المُرجفون عنك بهجري وأشاعوا أني سَلَوتُ هواكا

ما بأحشائهم عشقْتُ فأسلو عنك يومًا، دع يهجروا، حاشاكا

كـــيف أسلـو ومــقـلتـي كُلمـــالا ... حَ بـريقٌ تـلفَّـــتـتَ للـقِـــاكـــا

ان تنـسَـــمـتُ تحت ضـــوءِ لثـــامٍ ... أو تنـســمْـتُ الريحَ مـن أنبْـــاكـــا

طِبْـتُ نفـــسًـــا إذْ لاح صُـــبحُ ثنـايا ... كَ لعـــيْني، وفـــاح طيـبُ شــذاكـــا

* * *

كل من فـي حــمـــاكَ يهــواكَ، لـكن ... أنا وحــدي بـكلّ من في حـــمـــاكـــا

فــيك مــعنىً حَــلاكَ في عَيْن عــقلي ... وبه نـاظري مُـــعنىً حِـــلاكـــا

فُـقْـتَ أهل الجـمـــال حُـسْنًا وحُــسْني ... فــبـــهـمْ فــاقــهُ إلى مــعْـناكـــا

يُحـشـــر العــاشــقـون تحت لوائي ... وجـــمـــيع الملاحِ تَحْـتَ لواكـــا

مـــاثنانـي عنْكَ الضَّـنى فــبـمـــاذا ... يـا مـليح الـدَّلالِ عنـى ثـنـاكـــا

* * *

لـك قـــربٌ ببـــعــــدك عنيَّ ... وحنـو وجـــدتهُ في جَـــفـــاكـــا

علم الـشـوق مــقلتي سـهـر اللَّيـــ ... ـــلِ، فـصـارتْ من غـيـر نومٍ تـراكـا

حــبَّــذا ليـلةٌ بهـــا صِــدْتُ أسـرا ... كَ، وكـــان السُـهـــادُ لي أشــراكـــا

ناب بدر الـتــمـــام طـيْفَ مُـحــيًّــا ... كَ لِطـرفي، بيـــقظـتي إذ حكـاكـــا

فـــتــــراءيـت في ســـواكَ لـعين ... بك فـــرَّتْ ومـــا رأيـت ســـواكـــا

* * *

وكـــــذاك الخليلُ قـلب قـــبلـي ... طرْفـــه حين راقـبَ الأفـــلاكـــا

فـــالـد ياجـي لـنا بِـك الآن غُـــرٌّ ... حــيث أهديـتَ لي هُدىً مـن ثناكـــا

ومــتى غـبْتَ ظاهراً عـن عِـيـانى ... أُلفِـه نحـو باطني ألفـاكـا

أهـل بْدرٍ ركبٌ سـريتَ بـليلٍ ... فـيـه بل سَار في نهـارِ ضيـاكـا

واقتـباسُ الأنوار من ظاهري غيْـ ... ـر عـجـيـبٍ وباطني مـأواكـا

* * *

يعْـبَق المسْكُ حيـثـمـا ذُكـرَ اسْمى ... مـنذ نـاديْتَنى أقَـبِّلُ فـاكـا

ويضـوع العـبـيـرُ في كـلِّ نادٍ ... وهو ذكـرٌ مـعـبـرٌ عن شـذاكـا

قـال لي حـسنُ كـلِّ شيءٍ تجلىَّ ... بى تملي فـقلتُ قـصـدي وراكـا

لي حـبـيـبٌ أراكَ فـيـه مـعـنىً ... غُـرَّ غـيـري وفـيـه مَـعْنىً أراكـا

ان تـولىَّ عـلـى الـنفـوس تولىَّ ... أوتجلىَّ يسـتـعـبـدُ النُسَّـاكـا

فـيـه عـوِّضتُ هُـداى ضـلالاً ... ورشـادى غـيًّا وسـترى انـهـتـاكـا

وحـدَّ الـقلبُ حـبـه فـالـتـفـاتي ... لك شِـرْكٌ ولا أرى الاشـراكـا

يا أخـا العـذْلِ في من الحسْن مـثْلى ... هام وجـداً بـه عِـدمْتُ أخـاكـا

لو رأيـت الذي سـبـاني فـيـه ... من جـمـالٍ ولن تراه سـبـاكـا

ومـتـى لاح لي اغـتـفـرْتُ سُـهـادي ... ولـعـينيَّ قـلتُ هـذا بِـذاكـا

* * *

الألسنة والأسماع، هو الذى أغرى كثيرين بالنظر إليه متابعة واستلهاما، يقول واحد منهم يعزف على وتر رابعة:

لما عـلـمـت بـأن قـلـب فـارغ ... ممن سـواك، مـلأته بـهـواكـا

ومـــلأت كلـي منك، حـــتـى لم أدع ... منى مكانـا خـــاليـــاً لـســـواكـــا

فـــالقلـب فـيــه هيـامــه وغــرامــه ... والنـطق لا يـنفـكُّ عن ذكـــــراكـــا

والطرف حـــيث أُجـيلـه مـتلفـتـــا ... في كـل شئ يجـــتـلي مـــعناكـــا

والســـمع لا يـصـــغى إلى مـــتكـلم ... إلا إذا مـــاحَـــد ثوا بحـــلاكـــا

بل انه ينظر من قريب أيضا إلى أبيات ابن الفارض المشهورة:

لك قـــرب مني، بيـــعـــدك عـني ... وحنـوٌّ وجـــدته في جـــفـــاكـــا

علّم الـشـوق مـقلتي سـهـر الـليل ... فـصـــارت مـن غـيـــر نوم تركـــا

حـبــذا لـيلة بهـــا صـدتُ اسـراك ... وكـــان الســـهـــاد لي أشـــراكـــا

بات بدر الـتـمـــام طيف مـحـيّـاك ... لطرفـــي بيـقظىً إذ حـــكـــاك

فــــتـــراءيـت في ســـــواك لـعين ... بك قَـــرّتْ ومـــا رأيـت ســـواكـــا

وهي أبيـات تدور حـول فكرة استـحـضار صـورة المحـبوب وتفـنن هؤلاء الشعـراء العشاق في الإتيان بالصور المبتكرة والمعـاني الطريفة، وهو مجال كان لإبن الفارض فضل السبق فيـه، من خلال قدرته الفذة على إصطيـاد عشرات الصور التي يتـمثل فيهـا جمال صورة المحبوب، وتتجلى روعتها وتفردها وتمايزها، أليس هو القائل:

تراه ان غـــاب عـني كل حـــارجـــة ... في كـل مـــعنى لطيف رائق بـهـــيج

في نغـمـة العـــود والناي الرخـيم، اذا ... تألـفّـــا بـين ألحـــان من الـهـــزج

وفي مـــسارح غــزلان الخـمــائل في ... برد الأصـــائل والاصـــبـــاح في الـبلَج

وفي مـــســـاقط أنداء الغـمـــام علي ... بســـاط نَوْر مـن الأزهار مُـنتـــسج

وفي مـــســـاحب أذيال الـنســـيم إذا ... أهدى إلـيَّ سُـحَـيـراً أطـيـب الأرج

وفي التـشـامىَ ثغـر الكأس مـرتـشـفًا ... ريق المدامــة في مـــســتنزه فـــرج

لم أدْرِ مـــا غـــربةُ الأوطانِ وهو مـــعي ... وخـــاطري أيـن كنا غـــيـــر منزعجِ

* * *

ليلى..

قــد سُــقتُ فىَ الهــوى إليكَ مــهــجــتي

وَالــدمُ دمــعٌ لــغــــــرامى شــــــاهــدُ

ولـم أقـــصــرْ فــيكَ عـن حــفظ الـهــوي

والحـــرُ مَنْ يحـــفظْ من يعـــاهـدُ

« نجم الدين »

قد لا يعرف الكثيرون هذا الشاعر الصوفى الكبير، الذى لم يعطه المؤرخون ما يستحقه من مكانة، كأحد أعلام الأدب والتصوف فى القرن السابع الهجري. والشيخ محمد ابن سوار بن اسرائيل بن الخضر بن الحسن بن على بن الحسين الشيبانى المعروف باسم نجم الدين ابن اسرائيل (٦٠٣-٦٧٧هـ) هو أحد أولئك الأعلام الذين جمعوا بين الشعر والاتجاه الصوفي.

وقد بدأ نجم الدين شاعرا غزليا حسيا أكثر منه روحيا، كما يمكن القول ان شعره كان خليعا فى البداية، ثم سرعان ما جاءت لحظة التحول الروحي فى حياته، فدخل عالم التصوف، وأخذ قواعد الطريق على يد الشيخ على الحريرى ثم الشيخ شهاب الدين السهروردي، صاحب كتاب «عوارف المعارف».

ولعل هذا هو ما أحدث تغييرا جذريا فى توجهات نجم الدين الشعرية، ولعل الأبيات التالية خير مثال على ذلك:

يا مَنْ يُشيرُ إليهم المتكلم ... واليهمُ يتوجَّه المتظلمُ
وعليهمُ يحلو التأسفُ والأسى ... وتلذُّ لوعات الغرامِ المغرمُ
هذا الوجود وان تعدَّد ظاهراً ... وحياتكم ما فيه إلا أنتمُ
وشغلتمُ كلى بكم وجوارحي ... وجوانحى أبداً تحنُّ إليكمُ

* * *

واذا نظرتُ فلستُ أنظر غيركم ... واذا سمعتُ فمنكمُ أو عنكمُ
واذا نطقت ففى صفات جمالكم ... واذا سألتُ الكائنات فعنكمُ
واذا سكرتُ فمن مُدامةِ حبكم ... وبذكركم فى سكرتى أترنَّمُ
واذا نظمتُ تغزُّلاً فى صورةٍ ... فلأجل حُسنكمُ المحجَّبِ أنظمُ

* * *

أنتم حقيقةُ كُلِّ موجود بدا ... ووجود هذى الكائناتِ تَوَهُّمُ

أنا في وجودكمُ غريبٌ بائنٌ وغريبكم ما بالهُ لا يُرحمُ

ويتميز شعر نجم الدين بصدق معانيه، وروعة مخيلته، وسمو مقاصده، وغناء مفاهيمه الصوفية. وسوف نورد هنا غزلية نجم الدين الصوفية الرقيقة «ليلى» التى يرمز فيها للجمال الالهى بليلى، ويقول مؤثرا الموت على الهجر:

هل عهد ليلى بالكثيف عائدٌ أم طيفها لسُقْمِ جسمى عائدُ

حوار حار العقلُ فى صفاتها لها الجمالُ عاشقٌ وحاسدُ

فكل عضوٍ بدرٌ طالعٌ وكل عطفٍ فيه غصنٌ مائدُ

فعطفها وحُسنُ صبرى ناقصٌ وحسنها وفرط وجدى زائدٌ

* * *

يا كعبةَ الحسنِ التى أحجُّها فؤادُ مُضناكَ عليكَ وافدُ

قد سُقْتُ فى الهوى اليك مهجتي والدمُّ دمع لغرامى شاهدُ

وطفتُ فى مغناك حتى مَلَّنى من أرضك الرسومُ والمعاهدُ

ولم أقصِّر فيك عن حفظ الهوي والحُرُّ من يحفظ مَنْ يعاهدُ

* * *

وربما يُجمَعُ جمعَ شملنا بكم وتصفو عِنْدك المواردُ

وَعلَّنا نقضى مُنانا بمِنى وتنقضى من وصلنا المواعدُ

* * *

أو لا فموتى فيكمُ شهادةٌ علىَّ فيها بالرضى شَواهدُ

إلى كَمْ، رعاكَ اللهُ، تنأى وأقربُ وأرضى بما تجنى على وتغضبُ

فـلا أنتَ مـشك ان شكوتُ فـيشـتـفي فـؤادي وان أعـتبْ فـمـا أنت مُـعْـتَبُ
تـكـلـفـتَ لـي ذاك الـودادَ فـلـم يـدمْ وكـلٌّ وداد بالـتـكلـفِ يـصـــعـبُ
ومَنْ يتـكلفْ ضـد مـا هو طبـعـه تَعُـدْ نـفـسـه للطـبعِ والطبـعُ أغلبُ

* * *

يـقـــولون هـنـدٌ لا تـدومُ وزينـبُ على العـهـد، كُلُّ الناسِ هـندٌ وزينبُ
تـطـلـبـتُ وداً لا يـكـون لـعـلـة فـأعْـوَزَنى وجـدانُ منـا أتطـلبُ
وحـاولتُ مَنْ يوفى بعـهـد فـلم أجـدْ كـأن الـذى حـاولتُ عنـقـاءُ مـغـربُ
تلطّفْ فـإن اللطـفَ منك سـجـيـنةٌ تعطّفْ فـإن العطـفَ منك مـجـرَّبُ

* * *

وانْ كـان لابُدَّاً من الهـجـرِ فـاتئـدْ لعـل رحـيلى عـن جنابـكُ يُقْـربُ
سـأرحلُ عْنك اليـوم لامـتـلـفتٌ بوجـهـى كـأنى خـائفٌ مـتـرقّبُ
وأمـا ودادى فـهـو بـاقٍ وإن من بـقـاء ودادى أنـنـى أتـعـتَّبُ

لن أفعل كسائر الناس!..

لا تلمنى يا سيدى إذا احتسيت الخمرَ والشرابِ

وإذا قضيتُ فى الخمرِ والعشقِ أيامَ الشيبِ والشبابِ

« إبن أبى الخير »

أبو سعيد فضل الله المعروف باسم إبن أبى الخير، هو أحد كبار اعلام الصوفية الذين عرفتهم بلاد فارس، وهو صاحب المؤلف المعروف "المقامات فى التوحيد"، التى صاغها شعرا بالفارسية، على هيئة رباعيات.

ويقال ان إبن أبي الخير الذى ولد بخراسان وعاش ما بين (٣٥٧ - ٤٤١هـ) أنه أول من ابتدع الشعر الصوفى ، وأول من استخدم الرمزية والقصص فيه، وأول من طوع الرباعيات لكى تحتوى الأفكار الصوفية، ثم سار على دربه باقى من عاصروا، أو تلوه من شعراء الفرس.

وقد درس إبن أبى الخير الفقه الشافعي، وأخذ التصوف عن أبيه، وكانت حياته كلها زهد وتصوف، وتقشف، وكأن يصلى بالليل والنهار ويصوم بالأيام، حتى مات عن ثلاثة وثمانين عاماً.

ويقال أنه لما أشرف إبن أبى الخير على الموت طلب أن يكتبوا على قبره هذين البيتين:

سألتك بل أوصيك ان مت فاكتبى   على لوح قبرى كان هذا متيما

لعل شجيا عارفا سنن الهوى   يمر على قبر الغريب مسلما

ورغم أن إبن أبى الخير كان أحد شعراء عصره الكبار، وأحد الأصوات الصوفية العذبة التى شدت وصدحت بالحب الالهى إلا أنه لم يأتنا من شعره الكثير، لذا سنورد هنا جزءا من شعره، الذى جاء فى الترجمة الرائعة التى قدمها للعربية الدكتور الشواربي، وقد اخترنا لها عنوان «لن أفعل كسائر الناس»:

قلت: حدثنى عن جمالك.. من الذى يفوز ببهجته وسناه
فقال: أنا وحدى الفائزَ به.. مادمتُ فى الوجودِ والحياةَ
فإنى أنا وحدى لعاشقُ والمعشوقُ والعشقُ فىَ منتهاهَ
وإني. أنا وحدى العينُ المبصرةُ والجمالُ الزاهى والمرآة!

***

لا تلمني يا سيدي إذا احتسيتُ الخمرَ والشرابَ

وإذا قضيتُ في الخمرِ والعشقِ أيامَ الشيب والشبابِ

فأنا في إفاقتي أعاشرُ الأحبابَ وغيرَ الأحبابِ

ولكنني متى سكِرْتُ لا أجالسُ غيرَ الأصحابِ!

***

حدثتُ طبيبي عن آلامي الكثيرةِ الخافية

فقالَ لي كُفْ الحديثَ ولا تتكلم إلا عن صفاته العالية

وحذارِ أن تفكرَ في الدارِ الفانيةِ أو الباقية

***

يا إلهي أنا في عثرتي أرتجي عفوكَ ورضاكَ

وأنا في ذلَّتي أبتغي رحمتَك ونداكَ

ولنْ أفعلَ كسائر الناسِ فأحتمي بهذا وذاكَ

وليس من حامٍ ولا واقٍ في العالمينَ سواكَ!

***

إنشودة الساقي..

تجلي وجـــه محـبوبي

وهـــذا كـل مطلوبي

بـه صبـري هـو الـواهي

ومـوتي فـيـه مرغوبي

« النابلسي »

هذا الصوفي الجليل، كان شارحا ـ لا يباريه أحد ـ للطرق الصوفية في عصره، كما كان صاحب أكبر عدد من المؤلفات العظيمة التي تزيد على ١٨٨ مؤلفا. ورغم أن أكثر هذه المؤلفات شهرة حتى يومنا هذه هو كتابه "تعطير الأنام في تفسير الأحلام"، الذي قام فيه بتفسير الرؤى بالاشراقات والمكاشفات، إلا أن باقي لا تقل قيمة عن هذا الكتاب الذي يلتف حوله الناس في كل زمان ومكان ، من العالم الاسلامي الكبير.

ونذكر من مؤلفات هذا الشاعر الصوفي عبدالغني بن اسماعيل بن عبد الغني وشهرته «النابلسي» (الحنفي الدمشقي النقشبندي القادري) الحديقة الندية في شرح الطريقة المحمدية، وجواهر النصوص في حل كلمات الفصوص للشيخ محيي الدين بن عربي، وكشف السر الغامض في شرح ديوان ابن الفارض، وزهر الحديقة في ترجمة رجال الطريقة، وايضاح المقصود في معنى وحدة الوجود، ومفتاح المعية في شرح الرسالة النقشبندية، وتحقيق الذوق والرشف في معني المخالفة بين أهل الكشف، والنظر في معني قول ابن الفارض عرفت أم لم تعرف، والسر المختبي في ضريح ابن العربي، والفتوحات المدنية في الحضرات المحمدية، ورد المتين علي منتقص العارف محيي الدين، والفتح الرباني والفيض الرحماني، والصراط المثنوي في شرح ديباجات المثنوي، وبداية المريد ونهاية السعيد، والعقود اللؤلؤية في طريقة السادة المولوية.

وللنابلسي ديوان رائع بعنوان «الحقائق ومجموع الرقائق» ويضم شعره الذي يضم الكثير من المواويل التي تغلب عليها «المصرية» والتي ينشدها المنشدون في حلقات الذكر ومنها علي سبيل المثال لا الحصر:

يا أمةَ العشقِ فز بالبصر والسمع ... قوموا اتركوا الفرق عنكم واقبلوا الجمعِ

نور الشموع الذي يلمع عليكم لَمعْ ... من حرقة القلب قد سالت دموعْ الشمعِ

***

قوموا بنا كلنا نخرق حجابَ الطبعِ ونتّبع يا جماعة ما أتى في الشرعِ
حتى نشاهدَ جمال الله يلمع لَمْعْ ولا وجودَ لنا وهو الوجودُ الجمع

* * *

حبينا في بديع الحسن حيرنَا بين الحياةِ وبين الموتِ خيرنَا
حكم علينا وبالهجران غيرنا وبعد هذا بسوء الحال عيرنَا

* * *

وشعر النابلسي الذي يفيض عذوبة وحلاوة، وينساب في روعة وسلاسة، يغوص في صريح المواجيد اللالهية، والتجليات، ومنها هذه التجليات في وجه المحبوب، تلك المقطوعة التي ذاعت في حلقات الذكر عن المتصوفة والعشاق:

تجلي وجه محبوبي وهذا كُلْ مطلوبِي
فيا نار العِدا ذوبي بعيداً عنك مشروبِي
جمال الأهيفِ الزاهي وحسن الأغيدِ الباهِي
به صبري هو الواهي وموتي فيه مرغوبِي
رأينا نورَه أشرقْ فكنا برقه الأبرقْ
ولا نجد ولا أبرق سوى الابريقِ والكوبِ

* * *

علينا الخمرُ قد دارتْ بها ألبابُنا حارتْ
وأطيار الهوي طارتْ بترتيبِ وأسلوبِ
مليحُ الكون وافانا وزاد الحسنُ إحسانا
وحيَّا يوسفُ الأنا فقرتْ عينَ يعقوبِ

* * *

ومع ذلك، تبقي رائعة «النابلسى» التي شغلت الناس طويلا «أنشودة الساقى» معا أعظم ما كتب من شعر لعذوبة ايقاعها ، وخفة روحها، وسحر موسيقاها.

ولعل روعة هذه الأنشودة كانت سببا مباشرا في خلود أبياتها حتى يومنا هذا، ولنر معًا كيف صاغ «النابلسي» أنشودته الخالدة:

ساقي يا ساقي   أسقني من خمرةِ الباقي
واكْشِفْ لي عن قيدِ إطلاقي   آه يا ساقي، آه يا ساقِي

***

أستارهُ راحتْ عن   عيني والزهرة فاحتْ
والسكرةُ بالأسرارِ باحتْ   آه يا ساقي، آه يا ساقِي

***

اكشف لي عنكَ   في ذاتي وافتحْ لي دنّك
واجعلني يا حِبِّي أنَّك   آه يا ساقي، آه يا ساقِي

***

افتح لي بابَ الحانِ   واسمعني من طيبِ الألحانِ
وارشفني من كأسِ الملآن   آه ساق، آه يا ساقي

***

مَنْ يشربْ يسكرُ   من خمري لما يتفكرُ
ولامغرور في علمه أنكرُ   آه يا ياساقي، آه يا ساقي

***

لا يعرفُ أمرئ   إلا من يشرب خمري
أحشاؤه تصلي في جمري   آه يا ساقي، آه يا ساقي

ظهرت لكل الكون..

وهومـــا طابَ عـيشٌ لـم تكن فـيـــه واصـــلاً

ولـمِ يصفْ، لا واللـه، أنَّي له يـصـــــفــــو

عـــــــزمت عـلـى أن أتــركَ الـكـونَ كُـلـهَ

وأقــفـوا سـبـيل الحِب، والمجـبـتي يقــفــوذ

« ابن عطاء الله السكندري »

علم آخر من أعلام الصوفية، وأبرز ممثلي التصوف المصري في القرن السابع الهجري. يتنسب إلي الاسكندرية حيث ولد وعاش فيها إلى أن غادرها إلى القاهرة، بعد وفاة شيخه أبي العباس المرسي سنة ٦٨١هـ ، بعد أن صحبه اثني عشرة سنة، وتلقى عنه الطريقة الشاذلية.

وقد كانت بداية ابن عطاء انكارا للتصوف، واعتراضا علي المرسي، ثم استمع إليه، وأعجب به، وسرعان ما عكف عن جمع أقواله، وأستاذه الشاذلي، وترجم لهما، وحفظ تراثهما، وصار داعيا للطريقة الشاذلية.

وقد كان ابن عطاء، وكنيته تاج الدين، أحد كبار أئمة عصره في التسفير والحديث، له اليد الطولي في العلوم الظاهرة ، والمعارف الباطنة، التي وهب لها حياته التي امتدت حتي سنة ٧٠٩ هـ.

ولابن عطاء مؤلفات كثيرة مثل «الحكم العطائية» التي تعد من عيون النثر الصوفي، وأغلبها في صورة مخاطبات موجهة للمريد السالك، و«المناجة العطائية» ، وتعد من روائع الأدب الصوفي، و«التنوير في اسقاط التدبير»، و«تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس»، وهما عبارة عن مواعظ في التصوف.

وكما كان ابن عطاء رائعا في نثره، كان أيضاً رائعا فى شعره الذي لطالما كان منبعا للزاهدين، وقبلة للمتصوفين، ومرجعا للسائلين.

ومن شعر ابن عطاء سنقدم هنا قصيدة «ظهرت لكل الكون» وهي عبارة عن ابتهال إلي الله، يمتزج فيه الأمل بالرجاء:

وكليَ محتاجٌ، وأنت لك الغنى ومثلي من يُخْطى، ومثلك مَنْ يعفُو

وأنت الذي أبدى الوداد تكرمًا ومثلُك من يرعي، ومثلي من يجفُو

وما طاب عيش لم تكن فيه واصلاً | ولم يصفْ، لا والله، أنّي له يصفُو
عزمتُ علي أن أترك الكون كُله | وأقفو سبيلَ الحبِّ، والمُجْتبي يقفُو

* * *

شهودكمو يجلو الحجاب لأنه | اذا حقّق التحقيق صار هو الكشفُ
وما أحسنَ الأحبابَ في كُلِّ حالة | فلله ما يبدوا ولله ما يخفوا
وإن الأولي لم يشهدوك بمشهد | قلوبُهم عن نيْلِ سر الهوي غلفُ
وأنت الذي أظهرَ ثم ظهرْت في | جميع المبادي مثلما شهدَ العَرف

* * *

ظهرْت لكلِّ الكون، فالكون مُظهرٌ | وفيه له أيضًا كما جاءت الصحُّفُ
فأيّ فؤادٍ عن فؤادك ينثني | وأيةُ عينٍ بعد قربك لن تغفو
وأية نفْسٍ لم يُملها هواكمو | على حُبكم طُرًّا، نفوسُ الوري وقفُ
أيا صاحِ هذا الرّكبُ قد سار مُسرعًا | ونحنُ قعودٌ، ما الذي أنت صانعُ
أترْضى بأن تبقي المُخلّف بعدهم | صريع الأماني، والغرام ينازعُ
وهذا لسان الكون ينطق جهرةً | بأنّ جميع الكائنات قواطعُ
وأنْ لا يرى وجه السبيلِ سوى أمرى | رمى بالسري لم تختدعْهُ المطامعُ

* * *

ومن أبصر الأشياء والحقُّ قبْلهَا | فغيّب مصنوعًا بمن هو صانعُ
بوادهُ أنوارٍ لمن كان ذاهبًّا | وتحقيق أسرار لمن هو راجعُ

فـقم وأنظر الأكـوانَ والنورُ عـمّـهـا فـفـخـرُ التّداني نـحْوكَ اليـومَ طالعُ

* * *

وكنْ عـبْـدَهُ ألْقِ القـيـاد لحكمـه واياك تـدبيـراً فـمـا هو نـافعُ

أتحكـم تدبيـراً وغـيـرُك حـاكمٌ أأنـت لأحـكـام الالـه تَـنـازعُ؟

فـمـحـو ارادات وكُـلٌّ مـشـيـئـة هو الغَـرضُ الأقصى فهل أنـت سامعُ؟

كـذلك سـار الأولـون فـأدركـوا على اثرهـم فَلْيـسَـر مـن هو تـابعٌ

على نـفـسـه فليـبْكِ من كـان طالبًـا ومـا لُمـسـتْ ممن يُـحبُّ لـوامعُ

على نفْسـه فليْـبكِ من كـان باكـيًـا أيذهـبُ وقتٌ وهو بـاللهـو ضـائعُ

* * *

بالنور أشرقت..

يـا دولة الـعـــز الـهني الـســـرمـــدي

عـــزل الـعـــوازل لا يـزال مـــقـطعـي

فـــمـــتى أجـرد ســيف عـــزمي فـــاتـكا

ويـفـــــوز «حـلـمـي» رغـم أنـف المـدَّعِـي

« ابراهيم حلمي القادري »

ابراهيم حلمي القادري هو شيخ الطريقة القادرية النيازية، التي اشتقت اسمها من الجمع بين اسمي (عبدالقادر الجيلاني ــ عبد الرحمن نيازي) والتي اتخذت من مسجد القادرية بالاسكندرية مقرا لها.

وعلى مدى سنوات عمر القادري التي تقترب من سبعين عاما (١٣٢٢ ـ ١٣٩٠هـ) كان الرجل مثالا فريدا من نوعه للصوفي الذي يغلب علي تصوفه الطابع العلمي الرصين، البعيد عن كل مظاهر التخلف، التي نراها في بعض الطرق الصوفية المعاصرة.

وقد كانت شخصية الشيخ القادري تجمع ما بين الفقيه والمربي والمحقق والصوفي والشاعر الذي جعل من شعره أداة للتعبير عن الموضوعات الصوفية بطريقة رائعة ، ومحكمة، وغاية في البلاغة .

وشعر القادري ينطبق عليه ـ كما هو الحال، في معظم الشعر الصوفي ـ المثل القائل «أطيب الكلام أصدقه». فقد كان شديد الالتصاق بذاته، عظيم التوافق مع نفسه ، غلبت عليه المحبة الالهية، فراح يتغني بها، وينشد أعذب الكلمات، وأرق الألحان.

وعلي الرغم من أن هناك قصائد صوفية خالصة للشيخ الصادري تذخر بها المكتبة الصوفية، إلا أن له اطلالات شعرية علي العديد من القضايا التي شغلت مصر طويلا.

ومع ذلك، يبقي شعر القادري الصوفي مرآة صادقة لتصوف هذا الشيخ الجليل الصحيح، واستغراقه في الحب الالهي.

ونورد هنا رائعته «بالنورأشرقت» التي كتبت أبياتها علي جدران مقامه، وهي مثال واضح علي مدي رقة وعذوبة أشعار القادري الصوفية:

يا سيِّدي أنت الغَياثُ ومَفْزَعي ولئنْ بدا للغير فهو تمنُّعي

لكم الولا ودخيلكمْ يشكو الضنا والعبد يكرم بالولاء الأرفعِ

وبكم عُرفتُ ولي لديكم حُجَّةٌ ... تسمو على فلك الوجود الشُّرَّعِ
والشمسُ تعلمُ أنني معهودكمْ ... ولها علوت وكان إمر تطلُّعي

* * *

وبها فسال الدمعُ مني تمدُّه ... زفراتُ قلبيَ واصطلامُ الهُلَّعِ
وبها فأرَّجتُ العطورَ يبثُّها ... خير الخلائق بالدعاءِ الأجمعِ
منها على الحالين كنتُ مناجيًا ... أهل الهوى والساجدين الطُّوَّعِ
وعلى المعارج سيِّدي أرقيتني ... وَخلوتُ بالبيتِ المشيدِ ولادَعي

* * *

أقرأتني قدمًا كريمَ خطابكمْ ... وبه انتشأتُ وكان أمنُ تضعضُعي
بالنور أشرقت الحروفُ وكنت لي ... عينا وقلبا واصطنعتَ مسامعي
وسقيتني كأسًا فهِمْتُ مناجيا ... ونظمتُ أروع ما يكون ومامعي
غذيتمو روحي وإنَّ فطيمكمْ ... حاشاه يسجد أو يقوم لِمُمْتَعِ
عذلٌ وتبريحٌ وأنَّهُ مُوجَع ... والصبر بعد بهائه لمْ يلمعِ
مَنْ للنزيل إذا شكا منْ غُصَّةٍ ... الا الذي مِنْ بِرِّهِ لمْ يُمنعِ
أَلِفَ الدخيلُ مكارمًا من عطفكمْ ... وبها فقد طاب الشرابُ ومَرْتعى

* * *

والغيرُ ان مرَّتْ عليَّ فخاطري ... تأبى الرفيعَ بِبُهْرجٍ وبأرْقَعِ
صورٌ وأشكالٌ ومتعةُ ناظرٍ ... والوهمُ يخدع بالسرابِ وبلقعِ
ليتَ الغطاء عَنِ العيون تكشَّفت ... فيبين ما أَلِفَتْ نفوسُ الطُّمَّعِ
زرعٌ بلا ثمرٍ وطيرٌ صامتٌ ... صَمَّاءُ عَنْ لحن الشَّجيِّ وسُجَّعِ

وعــوازلُ الأحــــرارِ خلف زيوفــهــا كــــالنَّازعـــاتِ الناشطات الهُـــزَّعِ

يادولـةَ العـــزِّ الهنـيِّ الســـرمـــدي عـــزلُ الـعـــواذلِ لا يـزالَ مُـــقَطـعِّي

فـــمـتى أجـرِّدُ سـيفَ عـزمـيَ فـاتكًا ويـفــــوز حـلمـي رغم أنـف المُدَّعى

سُـحِرَ الـفـؤاد بـلطفكم وجـمـالكم ولغـيـركمْ قـلبي وسـمـعيَ لـم يَعى

مــازلتُ أهتفُ والـهـيـام مـلازمي وعطاؤكم مـهــمـا يـكن لـم أقنعِ

لن أنتـهي حـتى يكون لوصلكم قــبلي الوفـــاء لجُلَّسي والتُّـبَّعِ

فلقــد سلوتُ ولستُ يـومًـا ساليًـا يـا من بـهمْ أبقى ويفني مُـــروَعِّي

جـئتُ الرحـاب ونجــدتي بولائـكم والعُـــرْفُ يقـضيَ بـالعطاء الأوسعِ

عـــارٌ اذا مـــا الغـيــرُ يُبــدي مِنَّةً وعليكم حَـبَسَ الرجـاءُ تمتُّـعي

* * *

خُلْفُ الوعيـد فشـأنكم يا سـادتي أمـــا الوعـــود فـأجـــزَلُ وبأنـفعِ

والعـودُ يُحْـمَـدُ بالـلقـاء ووصـله يا مَنْ بهـمْ حسُنتْ عـوائدُ مـرجـعي

يـا آل يـثــــربَ يـا كــــرامَ مــاذا جـرى لعـهـودكـم وتضـرُّعي

فـــبكمْ إلـي المولي الـعـــزيز توسُّلي ويـكمْ عـلي الأبـواب رَنَّ تـوقُّـــعي

بكـمُ التـوسلُ في الشـدائدِ والـندي منكـم يُسـابقُ كـالسحـابِ السُّرَّعِ

* * *

زُفُّــوا الأمـــان إلي الكـئـيب فـــانه خَـضَبَ المشـيبُ نواحـه بـالأيْدَعِ

ثويَ الـرجــاءُ بكـم وان بَعُــدَ المديَ فـــأراه يـأتي بـالنوال الأمـــتعِ

منَّـا على حـــرم الحــبيب تحـيـةٌ تزكـو كـمـا يزكـو السـجـودُ لرُكعِ

وَمُـسَلِّمـا برقـيـقـةٍ تحـدو بـهـا زمــرُ الملائكِ والطـيـورِ السـجَّعِ

* * *

حسبي علوا..

لكن تنازع شوقي تارة أدبي

فأطلب الوصل لما يضعف الأدب

ولست أبرح في الحالين ذا قلق

نام وشوق له في اضلعي لهب

« ابن الخيمي »

هذا هو تلميذ إبن الفارض، والإبن الروحي لهذا الشاعر الصوفي الأشهر. ولد شهاب الدين إبن الخيمي في اليمن، أي أنه يمني الأصل، ولكنه عاش معظم حياته التي إمتدت إثنين وثمانين عاما في مصر، حتى توفى سنة ٦٨٥ هـ

وقد سار إبن الخيمي الذي كان يحيا على مقربة من ابن الفارض الذي كان يعامله معاملة الوالد لولده، سار على نفس نهج أقرانه من شعراء الصوفية الذين سادوا القرن السابع الهجري.

ومع ذلك ، فانه يبدو أن إبن الخيمي قد بدأ حياته شاعرا غزليا. ولعل ما يدفع إلي هذا الاعتقاد هو تلك الأبيات التي يصف فيها المحبة التي لا تليق في ظاهرها بالمحبة الالهية:

أيا مَنْ سَلَوا عنا ومالوا إلي الغدرِ ... ومالزموا أخلاقَ أهلِ الهوي العُذرى

وبعد حلاوات التواصلِ والهوى ... جنوا مُرَّ طعم الهجرِ مِنْ عَلْقَمِ الصبرِ

اذا ما رجعتم عَنْ محبتكم لنا ... مشاةً رجعنا عن محبتكم نجري

وإن كنتمُ في الجهر عنا صددتمُ ... ففي سرِّنا عنكم نصدٌّ وفي الجهرِ

سكنتم فؤادي مرةً ورحلتمُ ... فأصبحَ منكم خالياً خالي السرِّ

وقال لي العذالُ هل أنت راجعٌ؟ ... إذا رجعوا عن غدرِهم قلتُ لا أدري!

ولابن الخيمي أشعار كثيرة في الحب الالهي، ويري الباحثون أن شعره الصوفي يجعله في مقدمة شعراء الصوفية الكبار لرقته، وعذوبته وإبتعاده عن التكلف والصنعة.

ونقدم هنا «بائية» إبن الخيمي الرائعة «حسبي علوا»:

يا مطلبًا ليس لي في غير أربُ ... إليك آل التقصيّ وإنتهى الطلبُ

وما أرانيَ أهلاً أن تواصلني ... حسبي علواً بأني فيك مكتئبُ.

* * *

لكن ينازعُ شوقي تارةً أدبي ... فأطلب الوصلَ لما يضعفُ الأدبُ

ولست أبرحُ في الحالين ذا قلق نامٍ وشوقٍ له في اضلعي لهب

* * *

ومدمعٍ كلما كفكفت صَيِّبَهُ صونًا لذكرك يعصيني وينسكبُ
ويدَّعي في الهوى دمعي مقاسمتي وجدي وحزني ويجري وهو مختضبُ
كالطرف يزعم توحيدَ الحبيب ولا يزالُ في ليلِه للنجمِ يرتقبُ

* * *

يا صاحبي قد عدمت المسعدين فسا عدني على وَصَبي لا مَسَّكَ الوصبُ
بالله إن جزتَ كثبانًا بذي سَلَمٍ قفْ بي عليها وقُلْ لي: هذه الكثبُ
ليقضي الخدُّ من أجراعها وطرًا في تُربها ويؤدي بعضَ ما يجبُ

* * *

وملْ إلي البان من شرقِّي كاظمة فلي إلي البان من شرقيِّها أربُ
وكلما لاح معنى مِنْ جمالهمُ لباه شوقٌ إلي معناه مُنتسبُ
أظلُّ دهري ولي من حبهمْ طربٌ ومن أليم إشتياقي نحوهم حَرَبُ

* * *

لله قومُ بجرعاء الحي غُيُبُ جنوا عليَّ ولما أن جنوا عتبوا
يا ربٍّ هم أخذوا قلبي فلم سخطوا؟ وانهم غصبوا عيشي فلِمَّ غضبوا؟
هم العُرَيْبُ بنجد مُذُ عرفتهمُ لم يبقْ لي معهم مَالٌ ولا نَشَبُ
شاكون للحرب لكن من قدودهمُ وفاتراتُ اللحاظ السمرُ والقضبُ
فما ألموا بحيٍّ أو ألمَّ بهمْ إلا وغادرو على الأبيات وإنتهبوا
عاهَدْتُ في زمن البطحاء عهدي هوي إليهمُ وتمادتْ بيننا حقَبُ
فما أضاعوا قديمَ العهد بل حفظوا لكن لغيرىَ ذاك العهدَ قد نسبوا

* * *

من منصفي من لطيفٍ منهمُ غَنِجٍ لدنِ القوام لاسرائيل ينتسبُ

مُـبـدِّل القـول ظلـمًـا لا يفـي بموا عـيـد الوصـال ومنـه الذنبُ والغـضبُ
تُبـينُ لثـغـتُـهُ بالـراء نسـبَـتـه والمينُ منـه بزور الـوعـد والكـذبُ

* * *

مـوَحـدٌ فـيـري كلَّ الوجـود له مـلكًـا ويبطل مـا يأتـي به الـنسبُ
فـعن عـجـائبـه حـدِّثْ ولا حـرجُ مـا ينتـهي فـي المليح المطلق العـجبُ
بـدرٌ ولـكـن هـلالاً لاح اذ هـو بـالـ ورديِّ من شـفق الخـدَّين منتـقبُ

* * *

في كـأس مـبـسـمـه من حلو ريقـتـه خـمـرٌ ودُرُّ ثناياه لهـا حَـبَبُ
فلـفظـة أبدًا سـكران يُسـمـعنـا من مـغـرب اللحـنِ مـا يُنسى به الأدبُ
تجنى لـواحظـه فـيـنا ومنـطقـه جنـاية تجـتني من مـرهـا الضـرَبُ

* * *

حلو الأحـاديث والألحـاظ سـاحـرها تُـلـقـى إذا نـطـقَ الألـواحُ والـكـتـبُ
لم تـبقِ ألـفـاظه مـعنـيً يرقُ لـنا لقـد شـكتْ ظلمـه الأشـعـار والخطبُ
فـداؤه مـا جـري في الدمع من مـهجٍ ومـا جـرى في سـبيل الحبِّ مـحتـسَبُ

* * *

ويح المتـيَّم شـامَ البـرقَ من إضم فـهـزَّه كـاهتـزاز البـارق الحَـرِبُ
وأسكن البـرقَ من وجـد ومـن كلف في قلبـه فـهـوَ في أحـشـائـه لهبُ
وكـلمـا لاح مـنه بـارقٌ بعـثـتْ مـاءَ المدامع من أجـفـانه سُـحبُ
ومـا أعـادت نُـسيـمـاتُ الغـوير له أخـبـار ذي الأثـل إلا هزَّه الـطربُ
واهاً له أعـرضَ الأحـبـابُ عنه ومـا أجـدتْ رسـائله الحُسنى ولا القـربُ

* * *

سقاني الحب..

أري للقلب نحوكم انجذاباً ... لأسمع من جنابكم خطابا

فكم ليلٍ بقربكم تقضى ... إلي سحر سجوداً واقترابا

وكم من نشوةٍ وردتْ نهاراً ... فلا خطأ وعيتُ ولا صوابا

« ابن قضيب البان »

ربما لا يعرف الكثيرون أن أبو الفيض عبدالقادر بن محمد (٩٧١ ـ ١٠٤٠ هـ) الذى اشتهر بإبن قضيب البان هو أحد أئمة التصوف الذين ولدوا ونشأوا في بلاد الشام (حلب) ثم وصلوا مصر فاستقروا فيها ليعلوا ذكرهم، وينتشر صيتهم . ويتقلدوا ما يخلد اسمهم قرونا من الزمان.

وعندما استقر المقام بأبى الفيض فى مصر، زاد انتاجه الصوفى المتميز حتى بلغت مؤلفاته العظيمة فى التصوف أربعين كتابا أشهرها «نهج السعادة» ، و«الفتوحات المدنية»، ونفحة البان» ، و«المواقف الإلهية»، و«رسالة فى أسرار الحروف»، و«شرح أسماء الله الحسنى» ، و«مقاصد المقاصد»، و«عقيدة أرباب الخواص».

ولما كانت مؤلفات أبى الفيض تدل على رسوخ قدمه فى التصوف والمعارف الالهية، فقد بشره شيخ الاسلام يحيى بن زكريا القاضى بمصر وقتذاك بمشيخة الاسلام وبايعه على الطرق الثلاثة: النقشبندية والقادرية والخلوتية.

ولابن القضيب البان ديوان شعر على لسان القوم، وله تائية عارض بها تائية ابن الفارض، وكلماته تفيض بالجو الصوفى الروحانى، والرموز الصوفية المعروفة، التى تتجسد فى شعر الصوفية.

وها هى ذي بعض من أبيات ابن قضيب البان الرائعة التى تروى جانبا من تصوفه، وما تعلقت به نفسه في الحب الإلهى:

سقانى الحبُّ من خمرِ العيانِ ... فتهتُ بسكرتى بين الدنانِ

وقلت لرفقتى رفقاً بقلبى ... وخاطبتُ الحبيبَ بلا لسانِ

* * *

شربتُ لحبه خمراً سقانى ... كصحبى فانتشى منها جنانى

شَطَحْتُ بشربِها بين الندامى ورشدى ضاعَ مما قد دهانِى

* * *

فهام أولو النهى من بعد سكرى وغابوا فى الشهود عن المكانِ

مُريدى! لا تخفْ واشطحْ بسرى فقد أذن الحبيبُ بما حيانى

* * *

فأكرمنى وتوَّجنى بتاجٍ يقوم بسره قطب الزمانِ

وأمرنى على الأقطاب حتى سَرَى أمدى بهم فى كل شانِ

وأطلعنى على سر خفى وقال الستر من سر المعانِى

* * *

فهرس

عربية للطباعة والنشر

١٠٠٧ شارع السلام ــ أرض اللواء المهندسين

تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ ـ ٣٠٣٦٠٩٨

أحلى قصائد الصوفية



الحب الصوفي يتخذ فيه الشاعر من الذات الالهية موضوعا يدور حوله ، وفيه يصف الحب ولذته ، وما يجده من لوعة وأسي أو قرب ووصال . وكذلك ما يمر به في تصوفه من مقامات وأحوال ، ومجاهدة مستمرة للنفس ، وما يتعرض له من فيض رباني ، والهام قلبي ، وسمو روحى .

وفي شعر الصوفيين يتجسد هذا الحب الصوفي الالهي الغامر الذي نراه ينقسم شقين : شق يتعلق بحب الله تعالي للعبد . . واخر يتعلق بحب العبد لله ، وكلاهما أفاض فيه الشعراء الصوفيون .

وفي هذا الكتاب نحاول أن نسلط الضوء علي عدد من أشهر شعراء الصوفية ، الذين قدموا للإنسانية نتاجاً شعرياً رائعاً وتراثاً انسانيّا خالدًا آملين من المولي عز وجل ان يحظي برضاك ، واستحسانك .

مجدى كامل

